فى الواقـــع النفســـى

تألـيف

د. نيفـــين زيـــور

تقديم

أ. د. فـرج أحـمـد فـرج

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد – القاهرة

أسم الكتـــاب: **في الواقع النفسي**
أسم المؤلف: د/ نيفين زيور
أسم الناشر: مكتبة الانجلو المصرية
أسم الطـــابع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان
رقــم الايــداع: 18262 لسنة 2002
الترقيم الدولي: I-S-B-N 977-05-1947:2

بسم الله الرحمن الرحيم

★ تقديم وتعريف ★

هاهى نيفين زيور الأستاذة الأكاديمية الجادة والباحثة المفكرة الدءوب، تطالعنا فى هذا العمل المتميز بإطلالة على عالم النفس البشرية بعامة وعالم التحليل النفسى ؛خاصة فى حركته التاريخية الفريدة وطابعها الثرى الجدلى، ذلك الطابع الذى يتميز بالعمق دوماً، وإن تميز أيضاً بالتناقض الخلاق – بالمعنى الديالكتيكى الهيجلى الحق – ذلك التناقض الذى لابد منه شرطاً للتطور والتقدم، ولاتساع الأفق وشمول الرؤية والجدير بالذكر ذلك التوازى الخلاق بين حركة التحليل النفسى من جانب، وحركة التطور الأكاديمى والفكرى لنيفين زيور نفسها، من جانب آخر .

شهادة ميلاد التحليل النفسى – على يدى مؤسسة سيجموند فرويد– كانت «دراسات فى الهستيريا» لقد ولد التحليل على يدى طبيب نفسى ... ولد فى مجال طبى ... وصف المرض وتشخيصه وتقنينه ... ثم علاجه وصولاً إلى الشفاء الكامل أو قدر منه ... لكنه منذ البداية كانت آداته ... الإنصات ... لحديث «المريض» ... ثم إنصات «المريض» بدوره لحديث الطبيب ... وتوالت الإنجازات والكشوف ... المقاومة ... الطرح ... والطرح المضاد ... ثم الكشوف التى شيدّت من الوليد الجديد، أعنى التحليل النفسى «علماً قائماً بذاته ...

الجنسية الطفلية والأوديب هذه هى بداية «التناقض» وأكرر التناقض بالمعنى الديالكيتكى الهيجلى الخلاق - نحن هنا أمام كشف جديد فى «الإنسان» بما هو إنسان، وإن تم فى سياق طبى «وعلى يدى طبيب» ومن خلال «مرضى» يطرقون باب عيادة الطبيب يلتمسون الشفاء ويدفعون «الأتعاب» ... و

يتحول العلم الجديد إلى علم بالإنسان ... ويتجسد هذا العلم الجديد «علم الإنسان» فى أعظم أعمال فرويد «تفسير الأحلام»، ثم «النكتة وعلاقتها باللاشعور» ثم «سيكوباثولوجيا الحياة اليومية» ... وغيرهم وغيرهم ... ونسائل أنفسنا ... وهل الأحلام «مرض» وهل يسعى الحاكم إلى الأطباء طلبا لعلاجها والشفاء منها !!!... هذا هو الديالكتيك إذاً: مرض يقود إلى كشف فى «الإنسان» وكشف فى الإنسان يقود إلى فهم «للمرض» ... معرفة تقود إلى شفاء، وشفاء يتحقق من خلال معرفة ... وتتواصل المسيرة ويتعمق المسار ...

بدأ التحليل بفرويد – ذلك الطبيب النمساوى «العبقرى» الذى تجلت عبقريته فى كشوف طبيعية وبيولوجية وتشريحية ... لكن الفريد المعجز، أنه أحسن «الإنصات» لشكاوى مرضاه، وكل الأطباء ينصتون لشكاوى مرضاهم، ولكن إنصات فرويد لشكاوى مرضاه كان إنصاتاً فريداً غير مسبوق ... إنصاتاً يبحث عن «المعنى».. إنصاتاً يلتمس «التفسير» ...

وينتقل التحليل النفسى متجاوزاً حدود النمسا ... لظروف الحرب والهجرة وغير ذلك ... وتكاد تصبح لندن موطناً ثانياً له ... ويتطور هذا العلم الوليد، تتوالى مكتشفاته، وتتزايد أعداد الممارسين له والمشتغلين به –

أطباء وغير أطباء - ... ولكنه يواصل مسيرته على طريق فرويد - إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير - مزيد من التفاصيل، مزيد من العمق فى استكشاف محتويات اللاشعور ... مزيد من الفهم للنمو النفسى للطفل، ارتياد لمجالات تطبيقية فى الأنثربولوجيا ... الفن، الإبداع، الرواية ثم تأتى بعد ذلك طفرة كيفية، تنبثق هذه المرة من باريس عاصمة فرنسا، بلد الفكر والثقافة والفن والإبداع، فإذا جاز لنا أن نقول إن ألمانيا هى العاصمة التكنولوجية لأوروبا، وأن لندن هى العاصمة السياسية لها، فإن من الإنصاف أن نقول أإن باريس هى العاصمة الثقافية والفكرية لعموم أوروبا.

لذلك كله.. حقق التحليل النفسى فى فرنسا، وفى مدرسة باريس - حيث القلم الأشهر - جاك لاكان Lacan هذه الطفرة الكيفية، ولعل المناخ الفكرى والثقافى العام فى هذا البلد الفريد - فرنسا - وإيقاعه المتسارع فى كل فروع الإنسانيات بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، قد مهد الطريق للطفرة اللاكانية، فها هى البنيوية تتفجر فى مجال اللغة، أولاً ثم فى مجال الأنثروبولوجيا، ثم فى مجال التحليل النفسى.

وهاهو جاك لاكان يصول ويجول فى رحاب هذا المناخ الخصب ... يطلق شعاره الشهير «العودة إلى فرويد»، ويحظى أشهر ماكتبه على الإطلاق، أعنى «مرحلة المرآة» بمكانة مدوية، لا فى أوساط التحليل النفسى فقط، بل فى جميع مجالات البحث الإنسانى، بل إن هذه المجالات على تباينها أكثر حماساً وأسرع تلقفاً لهذه المفاهيم والأفكار من أوساط التحليل النفسى؛ خاصة مجالات الفن والرواية والسينما، إن مفاهيم الأوديب والمرآه والشريعة وقانون الأب والخصاء والفالوس والآخر الكبير والآخر

الصغير ... والنرجسية والرمز والصورة Image والمتخيل Imaginaire ... كل هذه الإسهامات الثرية – العسيرة أشد العسر ، والمعقدة أشد التعقيد أيضاً – قدمت فى مجموعها إطاراً ثرياً بارعاً باهراً لفهم أكثر عمقاً للوجود البشرى الإنسانى بعامة.

والحق أننى استشعر إمكانية تحقيق فهم أعمق وأشمل للنشاط البشرى الإنسانى الاجتماعى على أرض الواقع الفعلى.. الواقع الحى للإنسان فى نشاطه السياسى، والاقتصادى ... عالم لاتتوقف فيه الحروب، ولايتراجع فيه العنف ولايتوقف فيه استعباد القوى للضعيف والغنى للفقير، والمتقدم من الدول للمتخلف منها.. إنه جدل العبد والسيد.. إنه جدل العبودية المختارة على النحو الذى أفاض فى وصفه لنا مصطفى صفوان ... والذى لفت أنظارنا له عندما كشف لنا عن مدى عمق الارتباط بين عشق السلطة وماتنطوى عليه من بعد نرجسى سرابى لايرتوى أبداً ...

أحوال عالمنا تدفعنا – وهذا هو أضعف الإيمان، فيما يرى الضعفاء مثلى – إلى ضرورة الفهم – لكلمة حق تخطها أقلامنا فتسهم فى رفع القناع عن عيون الغافلين ، وما أكثرهم.

وأتحول عن أشجان الضعفاء إلى إنجاز صاحبة هذه الدراسات، فهى فيما أرى، ويرى كل متابع فاهم، تسير فى خط موازٍ لمسار التحليل نفسه على نحو ماذكرت آنفاً – التحقت نيفين زيور بهذا القسم عام ٦٧م – وهو عام لا ينساه مصرى – طالبة شابة واعدة جادة، أقبلت فى شغف على دراسة جميع مواده فأحست إستيعابها جميعاً دون تفرقة بين مادة وأخرى، لكن مناخ القسم ومكانة مؤسسه – المغفور له مصطفى زيور – تجلى فيما

اختارته لنفسها مجالاً لتخصصها الدقيق ...

اختارت التحليل النفسى، لكن الجدير بالذكر أن الذى أشرف على رسالتها للماجستير كان أستاذنا الجليل المغفور له سيد غنيم، الأستاذ العلم الذى تلقى أثناء دراسته العليا بسويسرا على يدى العالم الفذ جان بياجيه، فعاش رحمه الله مناخ أوروبا الفكرى والحضارى والثقافى فى أرقى مواقعه ... بياجيه أستاذه وسويسرا مناخه الفكرى، فاجتمع لها -بالإضافة إلى جلدها وحماسها وموهبتها الشخصية -مناخ الوالد المؤسس وثقافته الشاملة الواسعة لا فى التحليل النفسى والطب النفسى فحسب، وإنما أيضاً معرفته الشاملة بالفلسفة وتياراتها الحديثة.. كذلك تميز معرفته باللغة العربية نحوها وبلاغتها وشعرها، وكيف لا وهو الذى درس على أيدى مؤسسى الجامعة المصرية وعميدها وعميد الأدب العربى طه حسين ...

لذلك كان التكوين فريداً، ولذلك أيضاً كان إشرافى على رسالتها للدكتوراه متعة علمية حقيقية، أقرب إلى الحوار الخلاق منه إلى التعليم والتكوين والتوجيه، وربما تركز جهدى الأساسى فى التدريب على الحرفيات والتفسير النهائى، الذى تتوازن فيه عناصر هذه المكونات ...

على أن المسيرة الخصبة والخلاقة للدكتورة /نيفين زيور قد بدأت فى التميز فى دراساتها وإنجازاتها بعد ذلك، تتابع الجديد وبخاصة فى التحليل النفسى، بدأت فى تعرف الإنجازات الفرنسية، وساعدها جلدها وإصرارها وإلمامها الطيب باللغة الفرنسية، وتحولت بالتدريج إلى المدرسة اللاكانية تلك المدرسة التى لاتقف حدود نشاطها عند ماهو مرض إكلينيكى علاجى حرفى، بل يمتد إلى مختلف مظاهر الحياة الإنسانية

ومختلف مجالات النشاط النفسى للإنسان ... دون أن يخبو اهتمامها بكل ماهو جديد فى مجال الحرفة - المرض والطفولة - والعلاج النفسى وحرفياته ... وتوجت ذلك كله بهذا المؤلف الذى أتشرف بالتقديم له، ولعل التعريف بمحتوياته خير بيان بهذه المسيرة العلمية الخصبة .

تحمل أول يهذه الدراسات اسم الوهن النفسى Asthenic ، كما تحمل عنواناً فرعياً هو البلادة أو الخمول، وهى أشبه بدراسة حالة لطفل يطلب العلاج فى التاسعة من عمره ... هى عرض تعليمى حرفى لما يدور فى جلسات العلاج ،وماتقوم به المحللة النفسية مع الطفل منفرداً، ومعه وهو بصحبة أمه، ومن خلال العرض يتعرف القارئ المناخ الفرنسى فى خطوطه العريضة . كما يتعرف الجديد فى عالم المرض النفسى عند الأطفال والمراهقين، وتمثل هذه الدراسة مدخلاً مناسباً لبعد العلاقة بالآخر، أو العلاقة بالغير؛ حيث يشكل الجسم وعالمه همزة الوصل بين الذات والآخر، على نحو يصبح الجسم، أعضاء ووظائف خطاباً أو حواراً أو قل فى نهاية المطاف لغة وخطاباً «يقول» ...

الجسم يفصح - من الفصاحة، فى ضرب من المجاز والرمز عما يصمت عنه اللسان إنه - أعنى الجسم - هو الجانب «المسكوت عنه» من الخطاب أو النداء الموجه إلى الآخر، كذلك تعرض هذه الدراسة لإشكاليات اضطراب النوم - الأرق - لدى الصغار ومظاهر الإرهاق «النفسى»، ومايتخفى وراءه من صراع، وفى النهاية تطرح الباحثة صلة ذلك كله بظاهرة، لاتخلو منها الحياة الإنسانية أبداً ... أعنى ظاهرة الاكتئاب .

هذه الدراسة إذناً مدخل طيب ينقل القارئ فى سلاسة واقتدار

لمسيرة التحليل النفسى منذ بدايات النشأة الأولى – دراسات فى الهستيريا – إلى إسهامات المدرسة الفرنسية فى التحليل النفسى التقليدى منها واللاكانى ... فالحق أن التقليدى منها يحمل فى ثناياه البعد الفرنسى وزخمه الفلسفى النقدى فى عمقه وديالكيتكيته ... إنها تمهيد للدراسات الثلاثة التالية، وإعداد سلس لتقبلها واستيعابها.

تحمل هذه الدراسة عنواناً جامعاً شاملاً، هو : «فى إطار المدرسة الفرنسية» ، كما تحمل أيضاً أكثر من عنوان فرعى يهدف تحديد موقع هذه الدراسة والمعهد الذى تنتمى إليه، وهو : «معهد الدراسات السيكوسوماتية (أى النفس جسمية) وتزيد من تحديد هذا المعهد، الذى اتخذ اسم «مدرسة باريس» أما آخر التحديدات فهو «قراءات فى سيكوباثولوجيا الأطفال ...

هكذا تفصح هذه التحديدات عما تحتويه الدراسة أو قل الدراسات، هى تجرى فى إطار فرنسى وتتخذ من الإشكاليات السيكوسوماتية لدى الأطفال موضوعاً، وتجرى ذلك كله بالطبع فى مجال التحليل النفسى نظرية متميزة متفاضلة فى مواجهة غيرها من النظريات، والحق أن الرأى عندى – وأحسب أن هذا الرأى لاينبع من تعصب أو أحادية فكرية– أن غير التحليل لايعدو ملاحظات إمبيريقية ومعالجات إحصائية رقمية لا تبين قيمتها الحقة إلا فى إطار الفكر والتنظير المستمد من التحليل النفسى ..

المهم أن هذه الدراسة أشبه بسياحة علمية معرفية، أو قل هى بانوراما شاملة جامعة لما هو قديم من حيث زمن الطرح – أعنى مشاكل الأطفال وصورها السيكوسوماتية – أى النفس جسمية – وحديث من حيث عمق الفهم وتكامل التفسير، هى طرح لهذه المشاكل فى إطار نظرية فى

التواصل الإنسانى :

كل هذه النماذج المرضية لايستقيم فهمها إلا من خلال علاقة الصغار بالكبار – أى الوالدين – الأم منذ بداية الحياة ... وفور الميلاد، بل وقبله – أعنى الحمل ،بل. وأيضاً البعد الإنسانى فى علاقة من ستصبح الأم بمن سيصبح الأب (أى الزوج عندنا ...) وليس يخاف على فطنة القارئ أن فى ثقافة الشمال – أو الغرب كما يقال – ليس دوماً أن تقوم علاقة الأمومة والأبوه والبنوة فى إطار الشرعية الزواجية .

فى هذه الدراسة يتعرف القارئ الكريم، من خلال الحالات العيدية، مشاكل مثل الربو وما يتصل به من بنية علائقية – بالأم والأب – ومايتشكل من أبعاد لاشعورية تتأسس على هذه البنية العلائقية ... وفى ظل هذا الاضطراب فى بعد التواصل، تنبثق حشود وحشود من الإضطرابات السيكوسوماتية، والعصابية والسلوكية تتجمع معاً أو تتتابع بعضها الآخر ... ولعل أجدرها بالملاحظة – لحداثة ظهوره، ووصفه على هذا النحو «أعصبة السلوك» ... ثم ذلك الوصف الرائع لذلك الشكل الفريد من العصاب الطفلى : «العصاب الصامت»، وأيضاً ذلك العصاب، الذى يطلق عليه فى المدرسة الفرنسية Nevrose blache. وإذا كان المعنى الحرفى للكلمة الفرنسية Blanche أبيض، فإنها تستخدم أيضاً للإشارة إلى الغياب أو – ولعل هذا هو الأقرب إلى المعنى المقصود فى هذا السياق المرضى – «الخواء ...

وهكذا تجمع المدرسة الفرنسية بين التقليد الطبنفسى، فيما درج عليه من حب للتصنيف وولع بالفئات التصنيفية، ومايتيحه الفهم الإنسانى

الشامل للتحليل النفسى من «فهم» و «تفسير» لديناميات الحياة النفسية العميقة للإنسان فى جميع أحواله، طفلاً ومراهقاً وراشداً، ابناً وابنة، أم وأب، زوج وزوجة ...

وفى النهاية فلنذكر دائماً أننا نعيش واقعاً حياً ... يموج بالتحولات والتقلبات وبما يفجره من صراعات لانفسية فردية فحسب، بل والاجتماعية والثقافية والحضارية - وهل ننسى الحديث اليوم عن صراع الحضارات ... أو حوارها إذا أردنا تغليب التفاؤل على التشاؤم .

وفى النهاية هاهى كل مشاكل النفس ... تطرحها أمامنا المدرسة الفرنسية ... وتنقلنا إليها أو تنقلها إلينا هذه الأستاذة الجادة صاحبة الجلد والإصرار، والسعى الدءوب وراء كل ماهو جاد وجديد وشامل ... نيفين زيور .

وتحمل هذه الدراسة عنوان «فى الواقع النفسى» وتصدرها الأستاذة ببيت من قصيدة لنزار قبانى بعنوان «من أنا» يقول : «إنى أقول الشعر - سيدتى لا أعرف من أنا» ... والعنوان والبيت - من الشعر - يضعانا - نحن معشر القراء - أمام الطفرة التى تسم هذه الدراسة : هى دراسة فى الإنسان بما هو كذلك ... كنهه وماهيته ... جوهره ووجوده فى عالمه عالم النفس ... عالم الغير ... عالم الآخرين عالم يصبح هدف الإنسان فيه أن يبلغ البعيد المحال ... فلانجاة له فى عالم هذا حاله فيه(*) إلا ببلوغ هذا

(*) وقد تبدل حال الإنسان فى عالمه منذ وقائع ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ ، ولا أحسب القارئ الحصيف فى حاجة إلى مزيد من قول ....

الذى يكاد يكون بلوغه محالاً ... أن يعرف نفسه، وأن يغالب هذه المجهلة ...

وكان أول الساعين إلى بلوغ هذا الذى يكاد يكون بلوغه محالاً سيجموند فرويد ... وهذا ماتفيض فى بيانه هذه الأستاذة الموهوبة والجادة صاحبة الجلد والمثابرة ... كان ذلك عندما أقدم على أعجب تجربة يقوم بها بشر، أن يحلل نفسه بنفسه، متصدياً لقوى المجهلة داخل نفسه ... وتقوده هذه التجربة الفريدة ... الفريدة إلى تبين ذلك التطابق العجيب بين ذاته طبيباً سوياً معالجاً ... لايشكو من مرض ولايعانى من عجز ولايطرق باب طبيب يلتمس على يديه شفاءاً مما أشقاه أو أعجزه ...

أقول ذلك التطابق العجيب بين ذاته تلك ... وذوات مرضاه ... ماتبينه فرويد من خلال تلك التجربة التى لانظير لها كشف مزدوج ... كشف فى المرض والمرضى.. وكشف أشمل وأخطر، كشف فى جوهر النفس البشرية فتلك المجهلة، وهذه المقاومة التى تقف حائلاً دون مغالبتها ليست علة عارضة ولاصفة أو نقيضة يبتلى بها البعض دون البعض الآخر، بل هى جوهر وجود وماهية كينونة ... نعم هى جوهر النفس البشرية وبغيرها لاتكون.

وتكاد تذهب بى الظنون أن فرويد نفسه ماكان ليرتطم بها لو أنه ظل يمارس فرعاً آخر من فروع الطب أو البحث العلمى ... أما أنه انخرط فى ذلك النشاط الفريد فى علاجه لمرضاه، أعلى إنصاته لهم ومجاهدته من أجل فهم مايقولون، وتحوله عن الإيحاء التنويمى إلى التداعى الطليق ثم شروع مرضاه فى ذكر أحلامهم ...

كل هذا مع ماهو عليه من فطنة وموهبة قد أدت به جميعها إلى هذا السياق الفريد ،فطرح «المريض» يولد «طرحاً مضاداً» لدى المعالج ... بإيجاز إذناً نحن أمام كشف أشمل من مجرد كونه كشفاً لاتتجاوز فائدته وقيمته مجال الحرفيات العلاجية ... هو بالتأكيد ليس كشفاً طبياً ولا هو كشف فى المرض والأمراض.. هو أجل من ذلك وأكثر خطراً بكثير ... ويتأكد ذلك ويتدعم بكشف مواز ... كشف ضرورى ... الحلم وتفسيره ... أو قل لغته ورموزه ...

والحلم على هذا النحو - من حيث هو لغة الحالم، لغة تتكون من صور.. هو لغة مصورة ... ويقودنا الحديث عن اللغة والصورة والدال والمدلول - ما دمنا فى رحاب المدرسة الفرنسية ومناخ المدرسة أو قل مناخ الفكر والثقافة الفرنسية- إلى علم الأعلام فيها وواسطة العقد بين مفكرتها - أعنى جاك لاكان - صاحب الشعار المعروفة العودة إلى فرويد، وقراءته قراءة واعية فاهمة تتخذ من منجزات الفكر عدة وسلاحاً وعلى رأسها ثلاثة : الفكر الجدلى الهيجلى - وبخاصة محاضرات كوييف عن فنومنولوجيا الروح لهيجل وثانيهما الأنثروبولوجيا البنيوية لشتراوس، وثالثهما البنيوية اللغوية لدى سوسير .

هذه جميعاً فى ظل موهبة ذهنية متوقدة ومناخ ثقافى متفتح ... والحق أن هذه المصادر الثلاث وهذا المناخ العام وهذه الموهبة الفلسفية المتوهجة جعلت من كتابات فرويد - عنده - كنزاً لاينضب معينه ... وأذكر هنا واحداً من باكورة إسهاماته ... أو قل إلهاماته وأعنى بها مرحلة المرآة أو كما أظن «ساحة المرايا» ذلك أن كلمة Stade فى الفرنسية تعنى

مرحلة، كما تعنى أيضاً ستاداً أو ملعباً أو ساحة لعب ...

وبفضل هذا الإسهام، استطاع لاكان أن يعيد صياغة وبلورة مفاهيم أساسية فى التحليل النفسى، منها: مفهوم النرجسية وصورة الجسم بل ومفهوم العدوان ... وينفتح الطريق أمامه لقراءة كلية شاملة للبنيان الكلى لانظرية التحليل النفسى، بل منظور التحليل النفسى ورؤيته الشاملة للنفس البشرية ...

ونعود إلى عنوان الدراسة : فى الواقع النفسى ... ماكنة هذا الواقع النفسى وما علاقته بالواقع المادى أو الفعلى أو الموضوعى وما «الموضوعى» و «الموضوعية» وما «الذاتى» و «الذاتية» ... ألفنا أن نقيم تقابلاً إمبيريقياً ساذجاً ،فنقول أن الموضوعى ماله وجود مادى خارجى منفصل عن الذات وأن الذاتى على العكس من ذلك ماينبع من «ذاتية الفرد» على نحو منافٍ للواقع الموضوعى «الذاتى» إذناً، و «الذاتية» إهدار للواقع وإعراض عنه واستسلام للنزوة أو الرغبة أو المزاج وتقلباته، وأنها الحائل الحقيقى الذى يحول دون قيام العلم وإدراك الواقع ...

وإنها – الذاتية والذاتى – باب لاينفتح إلا على عالم الوهم والخرافة والجنون والأحلام – على أحسن الأحوال – هذه التفرقة، والتى يزعم أنها الأساس الذى قامت عليه طفرة العلوم «الدقيقة»؛ حيث التجربة والقياس والبرهان والدقة الرياضية والإحصائية تلقى الآن مراجعات حتى فى هذه العلوم، ليس هذا مجال الخوض فيها(*) .على أن الذى يعنينا هنا هو

(*) على من يرغب فى الإحاطة بهذا الأمر أن يلتمس فى فلسفة العلوم بصيصاً مع المعرفة بظاهرة «اللا تعين indetermmacy»، عند هيدنبرج بإشكاليات الطبيعة النووية ومايتصل بها من قضايا.

الإنسانيات وعلوم الإنسانيات وقضايا المنهجية والمعرفة الفلسفية أيضاً ... ففى هذه الظاهرات تلتحم الذات بالموضوع التحاماً، يستحيل معه الفصل بينهما ...

كيف يتسنى للذات أن تتخذ من ذاتها موضوعاً للدراسة ... ونقتضب فنقول مع مصطفى زيور «إن الموضوعية الحقة هى الفطنة إلى حتمية الذاتية» ألا يرى الباحث مما يتصدى لدراسته من «موضوعات قائمة بذاتها» أقول ألا يراها من خلال «ذاته» .. من خلال عرقه ونوعه وسنه وطبقته وثقافته وعقائده و «تعصباته» و «انحيازاته» ... وهل يملك الباحث مايرى به غير عينيه، وهل يملك مايسمع به غير أذنيه وهل يملك مايفسر.وينظر به غير عقله وتراث عصره وجيله، وانحيازات طبقته ...

هل يبقى بعد منجزات التحليل النفسى من يكابد فيما يلعبه اللاشعور ومالتلعبه «الرغبة» ،وماتتسم به من سرابية نرجسية، وهل يشك إلا الغافل فى ماتكشف عنه الدراسات اللغوية – بعد سوسير ولاكان – فى مدى ذلك التحكم الخفى لصورة الجسم، بكل مابها من تفكك وانشطار وبكل ماتتسم به من آخرية واغتراب فى بنية اللغة ذاتها. ولنقف ثوان معدودات، لنتأمل قولنا فى وصف حريق، ترتفع نيرانه «ارتفعت ألسنة» النيران إلى عنان السماء، وهل للنيران ألسنة ... أو لم يقل الشاعر العربى القديم : «إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا» حجاب الشمس أو قطرة دماً، وهل للشمس حجاب حتى يهتك، وهل لها دم حتى نريقه فيقطر..ثم هل من بشر، يستطيع أن يصل إليها أو أن يقترب منها ... أظن كفى انسياباً للخواطر ... ولنعد إلى موضوعنا ...

صحيح هناك الواقع المادى أو الموضوعى أو العيانى أو الفعلى، وله وجوده المستقل القائم بذاته والسابق على وجودنا بشراً ... وأفراداً – الشمس أو القمر مثلاً – وهناك الذاتى النفسى الداخلى – الحلم والهلاوس والفن والصور الشعرية – ولكل هذه الوقائع الخارجية لابد لها من بعد إنسانى، ينقلها ويصورها ويجسدها فى وعى الإنسان ... هذا هو ببساطة الواقع النفسى ... فى نهاية المطاف الخارج الغفل هو الأطروحة، والداخل الذاتى هو نقيض الأُطروحة ولقائهما معاً هو جماع الأطروحة ...

ونعرج فى إيجاز أقرب إلى الاقتضاب قائلين أن تاريخ التحليل النفسى نفسه قد جسد تلك الحركة الديالكتيكية الذاتية . توقف فرويد أول ما توقف – فى دراسات فى الهستيريا – عند مفهوم الصدمة trauma دورها الفاعل فى التهيئة للعصاب ... شىء يتراوح مابين المراودة عن الذات، يتعرض لها الهستيرى (فتاة فى الغالب)، ومايقترب من حدود الاغتصاب أو محاولته ... وذلك واقع مادى لامراء فيه ... وغالباً مايكون ذلك من الأب أو ولى الأمر أو أحد الكبار من الأولياء فى الأسرة ... ثم تحول عن ذلك عندما قام الدليل عنده على عدم صحته ...، إلى مفهوم آخر هو الغواية Seduction.

وجلى أنه إذا كان كذلك ففى ثنائية تبادلية، لاأحادية طرفية كما هو الشأن فى «الصدمة» فمن «يصدر عنه» فعل «الغواية لايقدم عليه إلا بقدر مايسعى إليه، ليلتقى معه فى منتصف الطريق من «يتلقى» هذا الفعل بالاستجابة، وبقدر وإن خفى وقل من الرضا والتشجيع، ويخطر على البال.. هنا فعل «الرشوة» التى يتساوى من يقدمها ومن يقبلها من حيث

«التجريم» أمام القانون ...

وفى إطار الغواية لم يلبث أن ظهر مفهوم آخر مقارب من حيث المعنى والسياق . إنه مفهوم «التخييل ... Fantasia» حيث العالم الداخلى بكل ماينطوى عليه من جموح مخلوقاته وعنف كائناته وتفجر قواه – إنه عالم الأساطير والغيلان ومُسخ – جمع مسخ الأساطير اليونانية من كائنات تجمع بين أجسام البشر ورؤوس الطير أو الحيوان أو الأفاعى ... إلخ.. عالم من الرعب الخالص الجامح الطاغى ... ذلك العالم يجافى كل المجافات عيانية الواقع المادى ... الفعلى الخارجى. إنه عالم نقيض الأطروحة ... ومع ما أقدم عليه لاكان من قراءة فذة لفرويد ...

ومع توالى «اجتهاداته» المبدعة وصياغاته العبقرية بدءاً من «مرحلة المرآة» فالمتخيل "Imaginaire" – أو قل عالم الصورة والصور والمتصور ثم احتفائه «بالنظر والنظرة gaze ... نجد ذلك الإلتحام الفريد بين الداخل والخارج بين الأشياء ... والنظرة تتركز عليها فى سحر وانبهار، فتعيد خلقها وتبعث فيها حياة وتفجر فى سكونها وغفوتها نبضاً ودفئاً ماكان للخارج الغفل ومعطياته «الخامدة الساكنة أن تفيض بها بكل هذه القوة دون مافى الداخل من قوى جامحة ...

تقول العامة ... «القرد فى عين أمه غزال ... هو قرد لكن عين الأم ونرجسية الأمومة ترى فى هذا القرد غزالاً ... هذا هو جدل الداخل والخارج ..هذا هو الواقع النفسى ..الواقع الحى النابض ...

ونقطع سلسلة الخواطر ونتوقف عن الاسترسال مع أفكار نيفين، رغم خصوبتها وثرائها، ومايثيره ذلك كله من خواطر وأفكار، تستجيب

لهذه الخصوصية بخصوية تتناغم مع خصوبتها ... وننتقل إلى المفهوم الختامى فى هذه الدراسة، والذى تطرحه قرب نهاية النصف الأول ،منها : أعنى «الواقع بين الصدمة والتاريخ» ... بين الماضى وتجاربه والحاضر بوقائعه ومشاهده ونبضه الحى القهار.

والملزم إننا نجد أنفسنا فى هذا الجزء من الدراسة أمام قراءة أو قل إعادة قراءة لمفاهيم تأسيسية فى التحليل النفسى التثبيت والنكوص ومراحل النمو النفسى الجنسى والجنسية الطفلية والإحباط ثم مفهوم «عصاب القدر» Fate Neurosis – كما بلورته هلين دويتش، فى الثلث الأول من القرن الماضى – القرن العشرين – حيث يلقى الماضى بظلاله على الحاضر، حتى يكاد يصبح الحاضر تكراراً مستمر المشاهد لهذا الماضى ...

والحق أن هذا الفهم «الإمبيريقى» لبعد الزمن قد تم تجاوزه ليتولد فهم أكثر دينامية وديالكتيكية ... الماضى والحاضر متصل لاتنفصل حلقاته الماضى، وقد مضى يولد دوماً من جديد فى إهاب الحاضر، والحاضر بدوره يمثل دوماً – هو الآخر – من حيث هو «قراءة جديدة لهذا الماضى» ...

ولنتذكر المقولة الديالكتيكية المأثورة «يولد الجديدة من رحم القديم» تماماً لما يحمل الأبناء فى أنفسهم جينات والديهم، ولعل المثل الشعبى القائل «من خلف ما مات» يعبر عن ذلك وهكذا تتمثل وحدة الموت والحياة الماضى والحاضر الغياب والحضور ... التراث والحداثة ... وحدة جدلية حقاً ... يلقى الماضى بظلاله على الحاضر، ويقذف الحاضر بقواه الماضى فلايعود شبحاً يحكم ويسيطر قبره – ولعل خير مايجسد ذلك على نحو

أسطورى هو «حكاية» دراكولا – مصاص الدماء – الذى يبعث بعد موته ليجعل من الأحياء نسخة منه لاتنتشر إلا الموت – ...

الحياة الحقة يعقب الأبناء فيها الآباء – أحياء أصحاب يحملون تراث الآباء، يجددون فيه ويغيرون منه ليصنعوا منه تاريخاً وحياة وليبنون مستقبلاً يتجدد دوماً، وهانحن الآن نشهد تسارعاً فى حركة الواقع على نحو، لم يكن له من قبل مثيل، ويتجلى ذلك بالأخص فى عالمى الكشف العلمى والمبتكرات، أو المخترعات التكنولوجية، ولعل أكثر مايعنينا فى مجال المخترعات التكنولوجية، عالم الاتصال – الهواتف النقالة – الموبيل – والتليفزيون وشبكات الأقمار الصناعية وأطباق استقبال القنوات الفضائية، ومايؤدى إليه ذلك من انقلاب شامل فى عالمى المكان والزمان وتداخل مذهل لايرد بين الثقافات والعادات والتقاليد ...

لقد تعامد بعدى المكان والزمان فساكن القاهرة أو جدة أو نيروبى يرى فى لمح البصر مايقع فى أبعد بقاع العالم ... ولعلنا نتذكر ذلك التعبير القائل : صار العالم كله قرية إلكترونية صغيرة ... نحن بإيجاز شديد نشهد تحولات – لاتحولاً واحداً – فى عالم الكلمة والصورة ... ولهذه الأشياء جميعها دفعها على واقع الحياة النفسية للبشر ... فهل أصبح الواقع النفسى للفرد – أى فرد وكل فرد واقع نفسى «كونى»، بصرف النظر عن قيم موطنه الحضارية والثقافية والأيديولوجية ...

وفى نهاية المطاف، نقول ما أشد أهمية حاضرنا فى صراعه أو «حواره» مع ماصار إليه هذا العالم من «عولمة»، تفعل الأفاعيل مع خصوصياته القومية والثقافية، ومع مايطلق عليه «ثوابت الأمة» وهل هناك

بعد كل مانرى وسنرى «ثوابت» فى وجه هذا الطوفان ... العلم عند الله وحده .

الرواية فى التحليل النفسى ... اعتبارات إبستمولوجية فى هذه الدراسة الرابعة والأخيرة، فى هذه المجموعة الرائدة من الدراسات، تخطو نيفين خطوة كبرى فى مجالين اثنين معاً، مجال التطور الفكرى الرائع الذى يحققه التحليل النفسى مواكباً فى ذلك التطور الفكرى العام فى مجال الإنسانيات، وتتابع فى جلد هذا التطور فى مجاله الأكثر خصوبة وإبداع، أعنى فى فرنسا وفيما يصدر فيها من كتابات بالفرنسية، والحق أن الفكر الفرنسى فى مجال الفلسفة واللغويات ... وبخاصة فرديناند دى سوسير والبنيوية اللغوية، كذلك الأنثروبولوجيا البنيوية اللغوية، كذلك الأنثروبولوجيا البنيوية ورائدها الأشهر كلود - ليفى شتراوس، ويلتقى هذا كله تحت راية القلم الأشهر جاك لاكان ومدرسته فى التحليل النفسى.

ولعل أكثر مايلفت النظر فى هذا الأمر أن التحليل النفسى الأنجلو أمريكى - أعنى الإنجليزى الأمريكى - الكندى - الأسترالى - ممثلاً فى معاهد وجمعيات التحليل النفسى - الناطقة بالإنجليزية - أقول إن هذه الروافد التقليدية، تسير فى الطريق التقليدى من حيث غلبة الأهداف العلاجية الإكلينيكية، مع ضمور لافت أيضاً فى الاهتمام بالمجالات الإنسانية من أدب وفن وثقافة وإبداع، ومع غياب كامل للاهتمام بقضايا اللغة وبعد عن إقامة الحوار الديالكتيكى، الواجب بين التحليل النفسى، ومنجزات فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية والأدب والنقد، بل وغياب مطلق للنظر فى أثر أكثر منجزات العصر التكنولوجية تأثيراً فى جوانب

مهمة للغاية من العقل الإنسانى، وأعنى هنا بخاصة الطفرة والإتساع فى عالم الصورة Image – ومنها المتصور أو المتخيل Imaginaire – وبالمعنى اللاكانى الدقيق – كظهور الكاميرا والصورة الفتوغرافية ثم السينما ثم التليفزيون ثم الفيديو، ثم أخيراً القنوات الفضائية والأقمار الاصطناعية ...

وهكذا يتواكب ملاحقة التحليل النفسى– الفرنسى اللاكانى – للجديد فى الفكر وفى المنجزات الحضارية الإنسانية... أقول يتواكب هذا مع تحول فكر نيفين فى امتداد آفاقه إلى البعد الإنسانى – لامجرد المرض فى العصاب والذهان واضطرابات الأطفال والاضطرابات السيكوسوماتية – فها هى فى هذه الدراسة تتناول الرواية – آفاق الخيال والإبداع ... آفاق الخطاب واللغة، ذلك المجال الذى تخلف الفكر التقليدى فى التحليل النفسى عن ملاحقته والتصدى له، رغم أهميته القصوى ...

ونوجز فنقول إن الطب والطب النفسى ثم التحليل النفسى – الإكلينيكى – كان لهم قصب السبق فى التصدى، كما هو مرض فى حياة الأفراد، ولعبوا جميعاً دوراً حاسماً فى الاقتراب من عالم الإنسان بما هو إنسان ... فالتقاليد الطبية ومقتضياته والعلاج، بل والمرض كذلك بما يحمله من آلام نفسية طبعاً في حالات العلاج النفسى، تدفع بالمريض الفرد إلى عيادة الطبيب طلباً للشفاء ... فما كان الإنسان بقادر على الإفضاء بمكنونات نفسه إلا تحت آلام المرض وشقائه، وفى حضور من تلزمه مهنته وتقاليدها بالإنصات أعنى الطبيب النفسى .

وكان دور فرويد أن يستقبل المريض ،وأن ينصت له مثله مثل

أساتذته وزملائه من الأطباء، ولكن موهبة الرجل وعبقريته المعجزة مكناه من أن يفجر من داخل هذا السياق الطبى عالماً جديداً كل الجدة لاصلة له بالطب ومنجزاته وأشكال ممارسته ... فهماً آخر للإنسان، اقتضاه النجاح فى إنجاز هذا الفهم أن يقوم بما لم يقم به من قبل غيره لامن الأطباء فحسب، بل ومن البشر أجمعين أن يحلل نفسه تحليلاً نفسياً ذاتياً، وأن يكشف فى نفسه – هو – أولاً ما استحال عليه أن يصل إليه ويفهمه لدى مرضاه، أعنى الأوديب والجنسية الطفلية والطرح المضاد، حتى ينجح فى اكتشافه داخل نفسه ليصبح قادراً على الكشف عنه لدى مرضاه .

ونعود إلى الرواية فى التحليل النفسى ... وإلى ما حفلت به هذه الدراسة من حشد متميز لأحدث إنجازات التحليل النفسى – الفرنسى طبعاً – ولعل الطرح الإبستمولوجى لمفهوم الزمن والماضى والحاضر، ومابينهما من ديالكتيكية وماطرحته الأستاذة من رؤية فيدرمان؛ إذ تنقل عنه ،أن الماضى لايستعاد فى الرواية، وإنما يشيد فى التو واللحظة بواسطة الراوى...

الماضى إذاً بالمعنى الفزيائى – ينقضى ليحل محل الحاضر، أما بالنسبة للإنسان ، فالماضى هو الغائب الحاضر دوماً .. هو الميت الحى يبعث فى كل لحظة يتوارى خلف كل حدث ... ووراء كل خاطر مادام هناك إنسان وماظلت هناك حياة ...

هذا هو سر الذاكرة وسر العقل البشرى، الماضى حى مادمنا أحياء نحمله فى خلايانا ونشيده فى تراثنا ...

ويخطر على البال ، وأنا أكتب هذه التساؤلات : لما ظل أوديب

سوفوكليس ماضى حتى بعثه فرويد من سباته – ولا أقول موته، فالماضى لايموت – ماثلاً فى كل نفس إنسانية ... ثم هاهو لاكان يواصل مابدأه فرويد ، فيخطو بهذا الأوديب القديم قدم سوفوكليس الحديث حداثه فرويد ... يخطو به لاكان خطوه أخرى ليصبح أوديب كان ماثلاً، لا فى عالم المرض النفسى وعالم البشر ... كل البشر، بل هاهو يمثل – وبكل القوة والجدة – فى عالم الأدب والفن والشعر (*) ، والرواية...

ويتسع هذا الأفق ويتسع ليمتد إلى عالم الصورة – عالم السينما هو المعنى فى نهاية الأمر – ذلك العالم الذى يتعملق فى سرعة ضوئية .

فى ظل ذلك التسارع فى المخترعات التكنولوجية بدءاً من الصورة الفتوغرافية فالسينما فالتليفزيون فالبث الفضائى والأقمار والاصطناعية ... نحن نعيش عالماً ، تداعب فيه رغبات البشر ، وتتحلق لهذه الرغبات آلاف الأوجه للتحقيق المتخيل Imaginaires عبر هذه المنجزات التكنولوجية، ولايخفى على متابع للأمر المكانة المركزية التى تحتلها الرغبة الجنسية سواء على نحو مباشر – أفلام الجنس ومشاهده – أو غير مباشر – وهو الأكثر بالطبع – بفضل فنون التجميل والتصوير والإضاءة، ونشير إلى ذلك الدور المتعاظم ، الذى يلعبه الإعلان التجارى السلعى وتداخلهما ...

إننا نشاهد نمواً هائلاً لما يمكن أن نسميه عالم الصورة، ونشاهد كذلك تزايداً فى أعداد المقبولن فى حماسة وشغف على مشاهدة هذه

(*) والأمل كل الأمل أن تواصل نيفين هذه الانطلاقة الرائعة الرائدة ؛ لتغزو لنا عالم الشعر العربي الفريد بجماله وروعته.

القنوات ...

إننا يمكن أن نوجز هذا كله فنقول إن التكنولوجيا الحديثة تتولى عملية تصنيع وتسويق هائلة لنوع فريد من «أحلام اليقظة الجماعية» فبعد أن كان حلم اليقظة نشاطاً نفسياً فردياًمغلقاً، قاصراً على صاحبه، قد صار شيئاً أشبه بما يمكن أن نسميه مجازاً «قطاعاً عاماً» ...

لذلك كله يمكن أن نقول إننا نعيش عصر «الصورة» متجسدة فى مسلسل تليفزيونى أو رواية سينمائية ، وهل ننسى إقبال الجميع «تقريباً» على مسلسل الحاج متولى (رمضان الماضى من منتصف نوفمبر- ديسمبر عام ٢٠٠١) .

لقد أصبحت الصورة منافساً جباراً للكلمة ، وأصبحت الرواية المصورة منافساً جباراً للرواية المكتوبة ، والحق أن المصدر الذى يغترف منه عالم الصورة (السينما والتليفزيون) مادته هو نفسه عالم الكلمة (الرواية المكتوبة ، ولاننسى روايات كاتبنا الروائى الأكبر نجيب محفوظ ، وتحويلها إلى أفلام ومسلسلات تليفزيونية) .

وبعد ... لقد كانت هذه الصفحات خواطر انسابت بفضل هذه الفصول الرائعة ، التى أمتعتنا بها الأستاذة القديرة الدكتورة / نيفين زيور ... وهى فصول رائعة فى طرحها لرحلة التحليل النفسى .. تلك الرحلة التى بدأت بما هو مرضى ، وانتقلت منه إلى ماهو إنسانى ولاشك عندى أن آفاق التحليل تتجلى أكثر ماتتجلى فى النظر إلى أحوال الإنسان كلها ماهو مرضى ، وماهو تربوى إلى ماهو إنسانى إلى الفن والأدب والثقافة والحياة والاجتماعية والسياسية .. إنها مسيرة التفاضل والتكامل .. مسيرة

الخاص والعام ... مسيرة الوجود البشرى كله، بل وأيضاً وفى الوقت نفسه التمايز والتلاقى ... تمايز التحليل بما هو تيار فكر وتخصص ، وتكامله فى ضفيرة هى الإنسانيات .

وختاماً تحية عطرة لصاحبة هذه السطور الجميلة

والله الموفق

فرج أحمد فرج

٢٠٠٢/١/٣

١

الوهـــن النفســى

الإرهاق والبلادة أو الخمول ASTHENIE

الوهـن النـفسـى

الإرهـاق والبـلادة أو الخـمـول ASTHENIE

عـانى بيـيـر Pierre من الإرهاق فى أوقـات منتظمة ، حينمـا جاء للاستشارة العلاجية فى سن تسع سنوات ، وأبدت أمه ضيقها الشديد بسبب تعب ابنها الذى لم تجد له تفسيراً ، وقد أخضعته لعدة فحوصات طبية وتحليلات معملية ، دون الوصول إلى معرفة السبب من وراء حالة التعب، الذى كان يصيبه كل شهر على وجه التقريب .

(١) ملاحظات حول الجلسة الأولى :

بدأت الجلسة الأولى ، وكأنها استشارة عادية فى مجال طب الأطفال ، فقد كان الدافع للاستشارة الأسباب الفيزيقية التى تبدت فى شكل خمول عانى منه الطفل من وقت لآخر ، هنا وقد كشفت الأم التى بدت عليها علامات شديدة من الحصر عن الحقيقة . ووصفت الأم حالة طفلها الذى عانِى لمدة عام – كل شهر تقريباً – من حالة من التعب الشديد بدى أثناءها مجهداً ، وظل فى فراشه طوال الوقت غير قادر على القيام بأى نشاط، ولم يبد أى رغبة فى اللعب وامتنع عن الذهاب إلى المدرسة .

ورغم أن درجة حرارته ظلت فى معدلاتها الطبيعية وكانت شهيته عادية .. فإنه عانى من حالة من الوهن والخمول الذى كان يستمر فيما بين ثمانية إلى عشرة أيام ثم تتحسن أحواله إلى حين . وعند الفحص الطبى الدقيق بدى الطفل طبيعياً تماماً ورغمها، فإن سلوك الأم قد اجتذب

انتباه الفاحص ؛ إذ أفصحت عن أنها كانت تنتظر أو تتوقع أن يكون ابنها فـريسة أشـد أنواع المرض خطراً على الحـياة . إنهـا كـانت تتـوقع مرضـه بسرطان الدم (اللوكيميا) ، وقـالت أنهـا فـحصت بيانات الكشوف الطبـية للطفل وعندما جاءت طبيعية حيرها الأمر وضايقها .

(٢) ملاحظات حول الفحص الفيزيقى :

كـرس الجزء الأول من الاستشارة لتفسير الاضطرابات ذات الطابع الجسـدى ، ويبدأ التـحـديد للمرض فى العـيـادة السيكوسومـاتيـة ابتـداء من الفـحص الطبـى ، وكـان لابـد فى حـالـة الإرهاق أو الوهن الجـسـدى وتواتره من تحـديد العلامـات ، التى صـاحبتـه على نحـو دقيق وتحـديد وضـعهـا فى الواقع نفسه والتفرقة فيما بينه وبين السلبية .

وقد اهتم البـاحث أساساً بالكشف عن مـرض خفى وراء الأعـراض، وكـانت تنتهى كل جلسـة بالمطالبـة بالمزيد من الفـحـوص التكمـيلـيـة ، سـواء أكـانت مـعـادة أم إضـافـيـة . ودفع حب الاسـتطلاع البـاحث لمعـرفـة جـملة المبالغ ، التى أنفقت فى هذه الفحوص والأدوية والتى كانت طائلة .

وقد تم استبعاد العوامل الفيزيقية من مـسببات المرض ، ولذلك اهتم بالبـحث فى الظروف المحـيطة والأكـثـر شيـوعـاً فى حـالات الوهن أعنى الأرق والاكـتئـاب . وعرف من تاريخ الحالة أن الطفل كـان يعـانى من نوم له طبيعة قلقة ، إذ كان ينام فى وقت متأخر ولايغفل إلا فى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وكان يصحو من وقت لآخـر أثناء الليل ليشرب أو يقضى حاجته ، وكان ينام أكثر فى الفترات الإضافية .

(٣) الأرق :

عانى الطفل من أرق شديد كخلفية للوهن النفسى ، وينبغى علينا ألا نخطئ ، ونعتبر الأرق سبباً فى الخمول أو الإرهاق أو الوهن الذى يعانى منه الطفل . إذ إن مثل هذ الاستنتاج قد يجرنا إلى البحث عن علاج طبى دوائى للأرق . وأدى الاهتمام باضطرابات النوم إلى تغييرات فى اتجاهات الأم؛ إذ تخلت عن اتجاهها الأول ، الذى اتسم بفقدان الأمل والرغبة فى الكشف عن حقيقة متاعب ابنها وفكرة «لاجدوى من فحوص تالية» ، واندهشت من الأهمية التى أضفناها على اضطرابات النوم ، وسألت عما إذا كانت اضطرابات النوم قد أدت إلى الوهن والخمول ، الذى عانى منها طفلها . . .

هذا وقد بادرها المعالج – دون الرد على سؤالها – بسؤال عما إذا كان الطفل لديه بواعث للضيق ؛ خاصة فى الفترة التى سبقت ظهور اضطراباته ، الأمر الذى لم تجد له الأم رداً كما سألها عن بعض نقاط حول سلوك الطفل فى المدرسة وفى البيت وكيفية تعامله مع والده ، وهى التى ترددت وأبدت ضيقاً شديداً عند الإشارة إلى الأب ، وقالت إنه قد تركهما ولم يعد يعيش بالمنزل .

(٤) الصـــراع :

مما سبق ، اكتشف المحلل من خلال استجابة الأم عن وضع أسرى خاص ، وبسؤال الطفل – فى جلسة منفردة – عن الامه الجسدية ثم عن أبيه أفرط الطفل فى البكاء ، وأفصح عن أنه لم ير والده سوى مرة واحدة خلال عام ، ثم سرعان مارد ذلك لأسباب تقولها أمه ، وزاد على ذلك

بقوله إن هذا موضوع ممنوع الحديث عنه فى المنزل ؛ لأن أمه مجهدة للغاية أو متعبة وأنه يقلق على صحتها ؛ إذ إنها ترجع إلى البيت متأخرة؛ لأنها بدأت العمل منذ عام . حينذاك لفت المحلل نظر الطفل إلى أنه قد بدأت معاناته الجسدية فى الوقت نفسه الذى بدأت فيه أمه العمل ، ووافق الطفل فوراً على هذا التفسير .

هذا وقد تبين للمحلل من خلال محتوى ونبرة حديث الطفل أنه يستشعر خيبة أمل ، تقترب من الاكتئاب والخلل ، يشكو من مدرسيه وزملائه ، وكانت تراوده باستمرار فكرة الرجوع إلى المنزل عندما يكون بالمدرسة ورغم ذلك فقد كان مجتهداً .

وحينما سئل عن رغبته فى العمل فى المستقبل ، فقد اختار مهنة والده ، كما عبر عن أنه مريض بمرض لايعرفه الأطباء إلا أنه غير منزعج لذلك لأن أمه تعنى به . وحينما سأله الباحث كيف تعنى أمه به، بدأ يعدد أفعالها المستمرة بأنها تأخذ حرارته وتعطيه الدواء وتأخذ عينات من الدم ، وهى كلها أمور لاتزعجه ؛ لأنها تهدف للحفاظ على صحته .

وقد كانت الجلسة التى انفرد فيها المحلل بالطفل قصيرة ، ورغم ذلك فإنها كشفت عن الكثير ؛ إذ إن المحلل قد وجد نفسه بعد عدة دقائق فى وسط دراما أسرية : طفل محروم من أبيه يحبه ، ويتعلق به إذ يريد أن يصبح كهربائياً مثله . وتوقف المحلل عن سؤاله مزيداً من الأسئلة بسبب مواجهته بكم هائل من الانفعالات ، تفجرت لدى الطفل أثناء سؤاله عن أبيه .

كما لفت نظر الطفل إلى أنه من المفضل الحديث عن قلقه ، وأن

عليه أن يبكى إذا أراد . هذا وقد شَخّص المحلل الحالة بأنها حالة فوبيا المدرسة وشيكة الاندلاع ، وتنتظم أعراضه حول «علاقة نكوصية مرضية»؛ إذ إن الطفل كان يصف متاعبه بنوع من الرضا ، وكأنه غير منزعج على صحته .

وكانت الجلسة مع الطفل ثرية بالمعلومات التى جمعها المحلل فى فترة جد قصيرة، والمدهش أن العلاقة فى المواجهة لايمكن أن يعيشها الطفل مع الغرباء ، إلا أنه رغم ذلك فى النصف الساعة التى سبقت ، فقد شارك الطفل بقدر أو بآخر فى الجلسة . ورغم تواجده فى صمت .. إلا أنه كان إيجابياً مما تبين فى المقابلة التالية ، فقد سمع كل ماسردته أمه من متاعب منذ اندلاعها ، وحينما أدرك اهتمام المحلل بآلامه المعنوية وليس آلامه الجسدية فحسب.

وبالإضافة إلى هذا وزنه المحلل وفحصه وقاس طوله ومدحه على عضلات جسده ، إلا أن أهم ماحدث فى هذه الحالة هو الحديث عن الأب فى وجود الطفل وحده مع المحلل ، ثم انضمت الأم إليهما بعد فترة وعلى وجهها علامات استفهام والتقى الثلاثة مرة أخرى .

وبزعم واهٍ (لسبب واهى) ، سألت عما إذا كان طفلها قد خرج للخطة ، بعدها استدار المحلل للطفل وأفهمه أنه يمكنه إبداء ضيقة مما سنقوله معاً للأم ، وأنه من الطبيعى أن يتحدث المحلل مع الأم وحدها مثلما فعل معه .

وقالت الأم للمحلل عن الأب بأنه هجرها منذ أربعة أعوام وتركها بسبب أخرى ، وكان يزور ولديه فى البداية ، إلا أنه توقف عن ذلك ،

وأبقت الأم أمـر انفصـالهـا سـراً حـتـى لاتصـدم طفليـهـا – بيـيـر وازابيل – حينذاك أشارت لأول مرة لطفلتها ، التى تصغر بيير بستة أعوام ، والعجيب أنها لم تسع للطلاق رسمياً .

ومما أدهش الباحث أن السيدة لم ترد رسم صورة سيئة عن زوجها، بل على العكس فقد أوضحت إنه كان أباً طيباً وزوجاً طيباً قبل معرفته بالسيدة التى تركها من أجلها . وواجهها المحلل – قبل أن تسترسل بفكرة المعاناة التى يعيشها الطفل – بسبب غياب أى تفسير للموقف الذى يعيشه، والذى يواجه فيه بالحقيقة الواضحة فى كل لحظة – فأجابت أنها لم تفكر فى الأمـر ، من قبل وأنها اعـتـقدت أن العكس أصح ، وسألت المحلل عن كيفية إخبار طفلها ، وعن اللحظة المناسبة لذلك .

ويعلق المحلل بأنه يوجد فى خلفية الصورة الإكلينيكية أن سلوك الأم إنما يفصح عن ارتباط وتعلق شديدين بوهم إصلاح زواجها ؛ إذ إنها عللت عدم مواجهة طفلها بحقيقة الانفصال بنوع من الاعتقاد الوهمى بأن الجهل بانفصالهما عن زوجها سيحفظ اتزان طفليها ؛ حينذاك أجاب المحلل بأنها ينبغى عليها أن تواجه مشاعرها أمام نفسها وانفعالاتها إزاء الموقف ، واقترح عليها العودة إلى الحديث معه حول موضوع انفصالها ؛ الأمر الذى وافقت عليه ، وأضافت بأنها تشعر بالعزلة وتفتقد إلى السند الحقيقى ؛ إذ إنها لم تستطع أن ترتبط بأحد منذ رحيل زوجها .

التعليق على الجلسة مع الأم :

اتضح للمحلل أن الموقف الصراعى الذى وجد الطفل فيه نفسه يكمن فى عدم وجود تفسير واضح وسبب معلن لانفصال والديه ، كما وجد

المحلل مـوقف الأم وارتباطها وتعلقها بوهم إمكانيـة الإصلاح فيما بينها وبين زوجـها ، كـمـا تعلقت باعتـقاد خـاطئ بأن عـدم إطلاع الطفل على حقيقة الانفصال سيحـميه من الصدمة ، ويعلق المحلل بأن الانفصال بالنسبة للطفل له آثار صدمية لايمكن تفاديها . أما الرغبة فى منع الصدمة بإخفاء الحقيقة فيؤدى إلى أخطار شديدة ؛ إذ إن تفسير غياب الأب بسبب العمل أو المرض أو السفر ، فيـفقد الطفل القدرةعلى التعامل مع الموقف ومن تطوير دفاع نفسى لرأب الصدع إبتداء من موقف واضح ، وفـهمه على أنه مـوقف نهائى فـانفصـال الزوجين يؤدى إلى الحزن ابتـداء من معرفة حقيقية به .

ومن المعتـاد.فى مـثل هذه المواقف أن يعـيش أحـد الزوجين وهم. التصالح وإمكانية الرجوع بسبب تعلقه بالآخر ؛ الأمر الذى لابد وأن يؤثر سلباً على الطفل . وهكذا وجدت الأم نفسها ، وقد حـوصرت وفـهمت من المقابلة أنه ينبغى عليها الخروج منها، وحينما أتى الطفل إلى المحلل ، أفهمه أنه سيساعده وأنه ينبغى التحدث معه ، الأمر الذى وافق عليه بسرعة ، ومن ثم حدد له موعد للجلسة التالية بعد شهر .

خــاتمة الاستشارة :

كـان من الضرورى إنهاء الجلسـة مع الطفل ؛ حـتى يستمع الطفل لمحتوى المحادثة التى كان هو هدفها ، إلا أن اكتشاف الوضع الأسرى غير العادى جاء مع الأم وحدها .

أما تأجيل الجلسـة التاليـة إلى فترة لاحقة ، فقد كان لسببين :

الأول إعطاء الأم فسحة من الوقت لتنضج التغييرات ، التى تعتمل فى نفسها وللوعى بالطبيعة النفسية ، التى تسم مشاكل طفلها بدلاً من اعتقادها فى أن الأسباب التى أدت إلى متاعبه ، تحمل سمات فسيولوجية، إلا أن بعض جوانب شخصية الأم بقيت خافية ، كما ظلت بعض النقاط كذلك بالنسبة للطفل .

هذا وقد وضع المحلل تشخيصاً مبدئياً لمصاعب الطفل واعتبرها تحولية فى إطار العصاب ، مع تعبير بالجسد عنها على نحوين :

الوهن والأرق مجتمعين ، ولم يستبعد إمكانية وجود عناصر اكتئابية؛ حيث يكون الوهن لدى الأطفال – فى كثير من الأحيان – فى الواجهة الخاصة بالبروفيل الإكلينيكى للاكتئاب .

الوهـــــن ASTHENIE

ظهر الوهن النفسى جنباً إلى جنب مع الأرق ؛ الأمر الذى يشيع فى اللوحة الإكلينيكية للأمراض السيكوسوماتية ، وبالمثل فى إطار التحول فى سن البلوغ ؛ بحيث تحل محل المسرحة التى سادت اللوحات الإكلينيكية فى الماضى .. ولذا فإن الوهن النفسى يسود مجموع المرضى من الأطفال، فحينما يجئ الطفل إلى الاستشارة العلاجية بسبب الوهن أو التعب .. فإن أول مايبحث عنه المعالج هو البحث عن المرض العضوى ، أما استبعاد السبب العضوى فيحثه إلى السعى نحو البحث فى مسار جديد .

ويصعب تبين الوهن لدى الطفل غير القادر على التعبير عن أحاسيسه على نحو دقيق ، ومن ثم يعتمد المعالج فى كثير من الأحيان على رواية البالغين ، الذين يعنون به الأمر الذى يخضع لكثير من الإسقاطات

من قبل هؤلاء .

والواقع إنه يمكننا الاستدلال على وجود الوهن ، من خلال سلوك الطفل ، إذا ماتبدت فيما يلى : – قصور النشاط – التكاسل – الانطواء والعزلة إلخ .. ورغم ذلك فإن السمات السابقة لايقتصر وجود لها فى حالة الوهن النفسى فحسب وإنما تنتشر فى فئات أخرى ، تحمل طابعًا، وتكون مانطلق عليه الاكتئاب الأساسى Depression Essentielle .

وينبغى التفرقة بين الوهن والتعب من وجهة نظر سيكولوجية ، والذى يسود بداية الحالة : تغيير فى المزاج وفى الشخصية أو ربما التحول نحو زيادة النشاط الحركى والهياج أو عدم القدرة على الهدوء ، كما ينبغى تحديد الوهن فى إطار واقعه النفسى ، كما علينا أن نفرق بينه وبين اللامبالاة والسلبية ؛ إذ يمكن للتعب أن يكون جزءاً من الموقف العلاجى نفسه ، ولاينبغى أن نظن أنه مشكلة ضخمة ، وكذلك فإنه يثير كثيراً من قلق الوالدين ، ويستثير لديهم استجابات مبالغة فيها .

أما التعب الذى قد يدعيه بعض أطفال ، فقد يؤدى بدفعهم إلى عديد من الاستشارات بلا فائدة وإلى أنواع من العلاج غير المناسب ، ونجدهم يأتون إلى العلاج محملين بعدد مدهش من الملفات والكشوف المتنوعة وحث الطبيب على طمأنتهم . ويصل الطفل إلى العلاج بعد هذا المشوار الطويل من الاستشارات الطبية العضوية والتحاليل والكشوف الهائلة ؛ حتى يمكن إطلاق اسم «الطفل المرض» enfant symptomie عليه ، وهذا الاسم إنما يحيلنا إلى مشكلة شخصية الأم أو البيئة المحيطة بالطفل ، ويستجيب الطفل فى هذا السياق (من متاعب شخصية الأم أو البيئة) باستجابة التعب

فى بداية الأمـر ، ونجده من ثم مـحـمولاً على الأذرع أو يـدفع فى عربـتـه الصغيرة بسبب ادعائـه عدم القدرة على المشى ، هو الذى نراه بعد لحظة وجيزة ، يلعب فى نشاط ، وتلحظ حالات إدعاء التعب تنتشر انتشاراً كبيراً، ويرجع ذلك إلى أن البـالغين الذين يعنون بالطفل ويحـمـونه من المخـاطر والآلام يتعبون من ذلك .

وإذا استـمـرت حـالات التـعب .. فإننا نطلق عليـه اسم «المتـاعب الجسدية الزائفة Faux Problemes Physiques ، وفى مـثل هذه الحـالات لاينبغى أن نتعامل معها بفتور ، وإنما تـستدعـى – على العكس من ذلك – اهتمامنا وسعينا إلى البحث عن الدوافع من وراءها ، أما استمرارها لفترات جد طويلة فإنها غالباً ماتؤدى إلى إضطرابات شديدة للغاية .

ومن ثم فإنه .. ليس من العجيب أن نلحظ حـالات من فوبيا منظمة تنظيماً دقيقاً ابتداء من مرحلة الطفولة الثانية seconde efance ، تسـودها مـثلمـا تحمل طابع الاضطرابات الحسيـة العرضيـة ، ونجـد أن مـحـتـواها له علاقة وثيقة بالاهتمامات الأسرية .

وتقبع مـصـادر التعب الزائـف سواء أكان مـبـالغاً فى تقييمـه أم كـان مـتـخيلاً أسباباً نفسـيـة حـقـيقـيـة ، وتـفـتح الملاحظات السـابقة البـاب على مـصـراعـيـه لدراسـة اسـتـجـابات الوالـدين ، وبالتـالى اسـتـجـابات الطـفل فى مـواجـهة الأمـراض المزمنة أو الانتكاسية ، التى يمكن أن ينتج عنها تكيف مناسب فى المـدرسة وفى المجـتمـع ، أو العكس إذ قد تؤدى إلى قـصـور فى التكيف ، اعـتماداً على ماهو مقبول وغير مـقبول بالـنسبة للوالـدين ، والأمر الأخير يتطلب بالضرورة تدخل المعالج .

النـوم الـقـلـق – الإرهـاق :

أول مـانبـحـث عنه فى حـالات الطفل المرهق ، هو طـبـيـعـة نومـه؛ فالمفارقة الأساسية فى حياتنا المعاصرة أن النوم أصبح مهدداً باستمرار وأصبح إشباعه أمراً أساسياً . وفقدان القدرة على النوم أو طبيعته العادية إنما يؤدى إلى نتائج وخيمة .. لها طابع مادى ونفسى ، وقد تكون فترة النوم غير كافية أثناء الليل ، كما ينتج أضرار وخيمة من نوم الطفل مع والديه أثناء الليل . ومشاكل النوم ليست بالمشاكل التى يسهل حلها كما أنها لاتختفى بإستخدام الأدوية ، وحينما تتشابك الظروف المعيشية السيئة واضطراب النوم فى حياة الطفل .. فإن الجوانب الشخصية والاجتماعية تتعقد باستمرار .

(١) **فعند الطفل الصغير :** يكون (الأرق) نتيجة ظروف الحياة بمختلف أشكالها هى واحداً للأمثلة الدارجة والحالة هذه – تكمن فى الإهمال أو العناية غير المنتظمة ، إذ يمكن للظروف السابقة أن تلعب دوراً جد مختلف ، ولكنه كثيراً مايتماشى مع النوم قصير المدى ، ونجد الطفل يصحو مبكراً فى الصباح وينام متأخراً ليلاً ، كما يتماشى مع حصر الانفصال ، ويعانى منه فى حالات الأم التى تقصر فى الحفاظ على طفلها ، وهذا الضيق يحمل مواقف متناقضة .

(٢) **عند الطفل فى سن الحضانة :** حينما يظهر التعب فى هذه السن ، فإنه ينتمى غالباً إلى نمط حياة الأسرة ؛ فاستيقاظ الطفل مبكر واصطحاب والديه له إلى المدرسة أو تركه مع مربية حتى يحين موعد ذهابه إلى الحضانة أو التقاطه فى المساء بعد قضاء يوم شاق،

فإنما يشعر الطفل بأنه أهمل ، ويؤدى ذلك به إلى متاعب جسدية ووجدانية ، نرى آثارها بوضوح .

(٣) **أما عند الطفل الأكبر هوناً :** تضع الأسرة على الطفل – على الدوام – الظروف المدرسية فى المقدمة ، والحقيقة إنها يمكن أن تصبح مصدراً لتوتر فكرى سئ بالنسبة للطفل ، وتفرض البرامج الدراسية أو المدرسية إرهاقاً للطفل ، أو أحياناً مايكون التنظيم الردئ للعمل الدراسى أو طبيعة أو نمط حياة الطفل أو قلة وقت الفراغ والهوايات سبباً فى الإرهاق .

ونرى الطفل بعض الأحيان منخرطاً فى استذكاره لدروسه لفترة أطول أو لوقت متأخر ، وبناء عليه يتعب ويصبح تحصيله أبطأ ، ويصبح أقل قدرة على استيعاب دروسه ، ويصاحب الوهن النفسى مظاهر كف ذهنى ؛ مما قد يفضى إلى سيادة الفوضى فى نوم الطفل، فينام فى أوقات غير منطقية ، أما القدرة على احترام النوم فى أوقات معتادة وتنظيم وقت الفراغ أمر ليس بالسهل ، لدى طفل يتميز بالحصر .

وكثيراً مانرى وراء هذه الأخطاء ذات الطابع المادى اتجاهات، تؤدى إلى المرض وتؤثر على الطفل بعمق أو فى بيئته أو كليهما . كما قد نرى أمهات مدققات ومهتمات فى تطبيق قواعد التربية الصارمة على أبنائهن ، ويضعن قائمة صارمة من القواعد ، لايمكن للطفل الاستجابة لها على نحو طبيعى أو تلقائى فى الحياة عامة ، وعلى وجه خاص فى مجال الدراسة .

(٤) **الوهن النفسى فى مرحلة المراهقة** : يرتبط الأرق والوهن النفسى والإرهاق بأسباب نفسية ، تتعلق بمرحلة المراهقة ، وهنا علينا القيام بتشخيص مفارق فيما بين الإرهاق والاكتئاب ؛ إذ يتميز الاكتئاب بسيادة مزاج الحزن وفقدان النشاط وانخفاض الثقة بالنفس وبالمثل انخفاض تقدير الذات ، ويبتعد الاكتئاب فى المراهقة عن الأشكال المتطورة له ، التى تنتشر انتشاراً ذائعاً فى الأبنية النفسية المرضية المختلفة .

وينتشر الميل إلى الاكتئاب انتشاراً كبيراً ، إن لم يكن سائداً فى لحظات معينة (محددة) من النمو النفسى ، وتبدو على السطح أحياناً وكأنها أزمة مراهقة ، أو تبدو وكأنها سائدة ودائمة أو تتناوب مع فترات من التوتر وزيادة الحركة فى أحيان أخرى . ويبدو من الصعب التفرقة الجيدة فيما بين الإرهاق لأسباب جسدية (فيزيقية) ، والوهن النفسى الذى يكون جزءاً لايتجزأ من زملة أعراض الاكتئاب .

(٢) **نقد الطب الدوائى للإرهاق والوهن :**

انتشر العلاج الدوائى انتشاراً مذهلاً ، سواء فى سن المراهقة أو الطفولة بمرافقة أسرة الطفل أو المراهق ، ولسوء الحظ أن يكون أب الأسرة المعنية طبيباً ، الأمر الذى يعكس الجهل والاستسهال .

الوهن والاكتئاب الأساسي :

ينبغى – ونحن فى محراب الوهن النفسى – استرجاع الأنماط الإكلينيكية والأسباب المؤدية للمرض ، والمعتادة على أساس من التفرقة فيما بين الأسباب العضوية والأسباب النفسية ، وهى تفرقة لاغنى عنها فى

البـحث عن مرض عـضوى خـفى ؛ يمكن للتـعب والإرهاق الكشف عنه . ويعد الوهن والإرهاق بمـثابة (إعـادة تسجيل retranscription) والأكـثـر شيوعاً فى مجال الآلام العضوية .

وتضئ لنا حـالة «بيير» – التى أشرنا إليـها – الحدود التى ترسم هذا المنحى والآثار السيئة للميل إلى التغير والعلاج العضوى ، وأن المبالغة فى الميل إلى هذا المنحى ، إنما تدفع إلى مـحاولة اكتـشاف المرض العـضوى بأى ثمن ، وتشير الحـالة إلى إرهـاق ذى طبيـعة تحـولية فـى سيـاق من لامعاوضة عصابية .

ونؤكد أن فى المراهقة مثله مثل مايحدث فى الرشـد ، فإن الوهن يمثل الشكل الفعلى الأكثر انتشاراً فى التحول الهستيرى ؛ التى لم تعد – فى عصرنا – تتجلى فى أشكالها الدرامية القديمة ، التى سادت عصر شاركوه . هذا وتقترب حالات الإرهاق فى الاكتئاب النفسى فى سن المراهقة إلى حد بعيد من مثيلاتها فى الرشد ، ومن ثم يعد الوهن النفسى فى المراهقة العرض الأكثر كشفاً لوجود اكتئاب أساسى ، والذى يشير بدوره إلى وجود اضطراب سيكوسوماتى .

سلوك الوهن لدى المراهق :

أتى «جان فيليب» وعمـره ستة عـشر عامـاً ونصف ؛ للاستـشارة بسـبب اضطرابات فى القـدرة على الكتـابة والإمـلاء واضطراب فى الخط الذى يستحيل قراءته ، ويمتلئ تاريخه بالامتثال للعلاج النفسى والعلاج التربوى النفسى من كل نوع : ابتداء من إعادة التربيـة فى مجال الحركة، فيما بين سن خمسة وسبعة أعوام وانتهاءً بالعلاج النفسى ، فيما بين مراحل

الدراسة الأولى إلى الخامسة .

وهذا المراهق ذو الصحة الجيدة بدا واهناً فى جلسته على مقعدة، وبدا مهملاً بشكل مذهل ، ويغيب تماماً لديه الانفعال بأى شىء ويقول دون توقف بأنه تعب ، هذا ولم يستطع الفاحص أن يجد أى علامات على الاكتئاب لديه ، وعرف منه أن عدد ساعات نومه قد انخفض بشكل ملحوظ وتحمل طبيعة رديئة . ووصفته أمه بأنه شاب لطيف، لايدخل فى صراع مع أحد فهو متوافق مع الآخرين ، على الدوام . وتميز جان فيليب بخمول وبلاده شديدين وغياب التواصل داخل الأسرة وفقر فى علاقات بخارج الأسرة . كما يعانى من حول فى عينيه ؛ الأمر الذى طالما أرجعت إليه عيوب الكتابة وعيوب التواصل ، وخضع بشكل سلبى لإعادة تقويم إعوجاج .

وهكذا اتضح من تاريخ الحالة لفترة طفولته الباكرة معلومات ذات دلالة ، فقد عنيت أمه به تماماً حتى رجعت مرة أخرى إلى عملها بعد ستة أشهر من ولادته ، وأثناءها كان ينام معظم الوقت فيما عدا لحظات الرضاعة ، وأثناءها كان يقضيها فى حالة شبه – نوم ، ولم تلتفت الأم إلى الطبيعة غير السوية لهذا إلا بعد أربعة أعوام وخبرتها مع طفلها الجديد؛ فجان فيليب كان بالنسبة لها طفلاً هادئاً وسهلاً وعاش معظم حياته بلا احتكاك مع أحد وبلا استثارة stimulation ، ووجدت هذه الأم فى طفلها ميولها الخاصة ؛ فطوال طفولتها كانت توصف بأنها كسولة ، وتقول عن نفسها ،إنه أثناء مراهقتى أحسست بأنى متيقظة هوناً ورغم ذلك فقد احتاج الأمر استثارة ما دونها ، أظل غارقة .

وأثناء حملها عاشت وحدها فى منزل كبير خاوٍ بلا أصدقاء ، وكان زوجها يترك المنزل للعمل مبكراً ويرجع متأخراً فى المساء ، فقد تميز الحمل بالكآبة والارتخاء وتركت نفسها للوهن ، ولم تعدل الولادة من حالتها شيئاً . ويبدو – والحالة هذه – وكأن حالة الكآبة أو الحزن لدى هذا المراهق، تستمد جذورها من علاقة أولية (باكرة) بالأم تحمل طابع الحزن والإهمال والهجر ، ولم تعوض بعلاقات أخرى فالأب لم يعتن به هو أيضاً ولو حتى لبضعة دقائق ، ذلك أنه لم يكن مهتماً بالأطفال الصغار ، ولم يبدأ فى الاهتمام بهم إلا عندما كبروا . وهكذا فإن هذه الحالة تقع فى فئة قصور (عيوب) التكامل الأولى ومايترتب على ذلك من كفوف فى التدريب على استخدام الأدوات والمعارف ؛ الأمر الذى يتوازى مع استعداد للاضطرابات السيكوسوماتية . الباكرة أما اضطراب النوم ، فيعكس إخفاقاً أساسياً فى العلاقة الأولية بالأم .

وينبغى الإشارة إلى أنه كثيراً مايحدث خطأ فى تشخيص البلادة أو فتور الشعور Apathie ، بوصفها الوهن النفسى Asthenie ونراها أحياناً لدى أطفال جد صغار اتسموا منذ ميلادهم بالهدوء ، وربما بالأدب المبالغ فيه ، وغياب الاهتمامات المختلفة ، فهم هادئون ورقيقون ويغيب لديهم أى رغبة فى النظر أو السمع أو المعرفة فهم منعزلين وفقراء وغالباً مايسئ الأطفال الآخرون معاملتهم فيما بعد – وفى مواجهة هؤلاء نراهم عزل .

وهذا السلوك يتأكد ويتكشف فى المدرسة ؛ حيث يبدو هؤلاء الأطفال غائبين عن محيطهم ، وغير مهتمين بما يحدث من حولهم . وتؤخذ البلادة أو فتور الشعور Apathie خطأ على أنها بلاده مدرسية ، ويعتقد أن

السبب من وراءها يكمن فى اضطراب فيزيقى (بسبب الغدد) ، ويعتقد أنها علامات على عدم الحيوية لها آثارها السيئة على التحصيل الدراسى .

أما محاولات إخضاع الطفل لإعادة التربية reeducation أو الأنواع من العلاجات النفسية غير المناسبة .. فإنها تفشل بالضرورة . أما طفلنا جان فيليب فتظهر علامات السلوك الفارغ واضحة فى طفولته الباكرة .

٢

التحليل النفسى ..
نظرية فى
التواصل الإنسانى

فـي إطـار المـدرسـة الفـرنسـيـة (I.PS.O)

معـهـد دراسـات السـيـكـوسـومـاتـيـك واتـخـذ اسـم Ecole de Paris) مـدرسـة باريس) قـراءات فـي سـيـكـوبـاثـولـوجـيـا الأطـفـال

أو

التحليل النفسي .. نظرية في التواصل الإنساني

أولاً : عـصـاب سـلـوك الأطـفـال : NEVROSE DE COMPORTEMENT DE L'ENFANT.

مقـدمـة :

تعد هذه محاولة لشد الانتباه إلى وظيفية نفسية ، يكون التعبير فيها عن طريق النشاط أو الفعل ، بدلاً من التعبير عنها بواسطة تطوير نفسى فى شكل عصاب (الهسيتريا والرهاب والحصار والقهر) ؛ إذ يعبر عن الصراع والضـيق MALAISE (توعكات) عن طريق الفعل ونستخدم مصطلح «عصاب السلوك» لوصف مثل هذه الحالات المرضية مع مقابل مصطلح الأعصبة النفسية ، وهى اضطرابات متعددة الأشكال الإكلينيكية.

أما غياب التنظيم الجسدى فينتج على حساب سقوط الدفاعات النفسية على نحو حاد.

(ا) عـصـاب السـلـوك فـي سـن مـاقبل المراهقـة . ربو ناتج عن جـهـد بدنـي.

التجوال الليلى ملاحظة رقم «١» :

أتى «جيرار» GERARD إلى مستشفى الطب السيكوسوماتى فى سن

أربعة عشر سنة بسبب حالة ربو ، تطورت لديه منذ سن تسعة أعوام؛ إذ كانت تنتابه أزمات ربوية متكررة أثناء النهار ، وغالباً ماكان يستثيرها مجهود بدنى بعد القيام بالجمباز أو الألعاب الرياضية ، وكانت تستمر الأزمة عدة ساعات، وكان همه الأكبر هو حرمانه من الأنشطة الرياضية .

وكان جيرار الطفل الثانى فى أسرة مكونة من ثلاثة أخوة ، هذا وقد اندلعت الأزمة الأولى أثناء وجوده فى إجازة فى بلدة كانت مسُقط رأس أبيه ؛ إذ كان يمضى وقتاً بين عمه وعمته وأبناء عمومته ، وكان قد قام بتمرينات متوسطة المجهود ، وكان يخشى فى كل مرة أن يتوقف عن أنشطته الرياضية ا، لتى كان متفوقاً فيها ، فتغيير بيته المعتاد كان أمراً صعباً بالنسبة له ، فكان يشعر بعدم الإرتياح ، حينما كانت تجرى الأحداث على غيرماكان يتوقع .

وحينما كان يفقد شيئاً حتى ولو كان بسيطاً وسهل التعويض ، كان يخبره على أنه أمر خطير ، وكان وقت عودته إلى المدرسة فى كل سنة بعد الإجازة الصيفية بمثابة أمر غاية فى الصعوبة ، وكان الجو الجديد فى الفصل الجديد يتطلب وقتاً طويلاً يظل فيه جيرار مضغوطاً يشعر بالضيق على عكس سلوكه المعتاد .

كما كان يرفض على الدوام الذهاب إلى المعسكر فى الإجازة ، ونلحظ أن أول أزمة قد اندلعت حينما انفصل عن والديه لأول مرة فى حياته ، وسافر إلى البرتغال (مسقط رأس والديه) . أما تاريخ الحالة ، فيكشف عن مرضه المتكرر ، فقد عانى من عدة أمراض عضوية منذ ولادته : هذا وقد عانى من عدوى بعد ميلاده مباشرة على إثرها تطلب

وجوده بالمستشفى لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم ظهر تقشير جلدى فى يدى أمه بعد رجوعه من المستشفى مباشرة .

ووصفت الأم هذا المرض على أنه مرض ، قاست منه هى وكل عائلتها وخاصة أجدادها . وفى سن سنتين ونصف عانى «جيرار» من أزمة ربوية فى الشعب الهوائية تزامنت مع ميلاد أخيه الأصغر ، الذى عانى بدوره من مصاعب صحية متكررة تطلبت اهتمام عائلته . ثم اختفت الأزمة الربوية عند سن أربعة أعوام بعد قضاءه وقتاً فى الجبل مع أمه وأخويه .

وقد كرس الجزء الأول من الجلسة الأولى للحديث مع «جيرار» و«أمه» و «أبيه» ، وبدا من سلوك الأم ونبرة صوتها أنها شديدة التعلق بإبنها، ووجود تقارب فريد بينهما فقد استطردت فى وصف جماله الذى كان مدهشاً فى نظرها منذ ميلاده ، ووصفت لون عينيه وتناسق حركاته وطريقة تحرك جسده وتفوقه الدراسى وذكاءه الذى لايقارن وبدت وكأنها تعيش معه ومن خلاله وتهتز بآلامه ومشاكل تكيفه ، وتحاول بالتدريج مساعدته على التغلب على مصاعبه فى علاقاته وبيئته . وأثناء ذلك كان الأب مشاركاً على نحو إيجابى ، وكان يقطع على الأم حديثها ، كى يوضح نقطه محدده .. ترتبط بالسؤال الذى طرحه المعالج .

وبدا وكأن الوالدين يتشاركان فى قلقهما ومحاولتهما لفهم أطفالهما، وكانا يتجنبان العنف أو حتى أقل الصراعات، وقد اعتنقا أسلوب اللاعنف فى معاملاتهما مع الأطفال ، وكانا يتميزان بدقة ضبط مشاهدة البرامج التليفزيونية حتى لايتعرض الأطفال لبرامج العنف ، ثم بقى «جيرارا»

وحده مع المعالج الذى سأله عن انطباعه ومشاعره تجاه ما استمع إليه من والديه ، وجاء الرد بأنه لايبالى بما قالا ، وإنما مايهمه من الأمر هو ممارسته للرياضة .

وكان انطباع المعالج عنه أنه لم يضع عراقيل أو استخدم دفاعات، وإنما شارك برحابة صدر ووضوح فى مناقشة المعالج ، وكان يرد على الأسئلة بسلاسة ، وكانت ردوده تتماشى مع آراء والديه ، مما اندهش له المعالج وعبر عن أنه قارئ مهم لأن والديه كانا يجعلانه يحكى ماقد قرأه .

كما اندهش المعالج من دقة سرده وذكائه (**إلا أن كان هذا كان يخلو تماماً من أى طابع وجدانى . كما بدا – أثناء علاجه – الفقر الشديد فى التعبير التخييلاتى والغياب شبه التام للأحلام**) .

وحينما سئل عن أحلامه تبين للمعالج أنه يمشى أثناء النوم ، الأمر الذى أهمل والديه إخباره للمعالج . هذا وقد كان «جيرار» يمشى أثناء الليل بشكل متكرر ، منذ سن سبعة أعوام ، وذلك بعد ثلاثة أعوام من اختفاء الربو الشعبى ، وقد تجول جيرار أثناء الليل فى منزل ريفى ذهب إليه فى الظلام الدامس ، وبدأ تجواله من الدور الأرضى حتى وصل إلى حجرة والديه فى الدور الثانى ، دون أى مشاكل رغم أن المسار يتسم بالتعقيد .

وبدأ التجوال الليلى بعد ساعة من نومه ، وكان يتجه نحو حجرة والديه فى كل مرة ، وعلى وجهه ملامح ضيق متمتماً بكلمات غير مفهومة . وتبين أنه كان يعانى من كوابيس متكررة ، ينساها بسرعة وظل حتى سن الرابعة عشر فى حاجة دائمة لقطعة من القماش الصوفى يمسكها حتى ينام .

تعليق : يبدو من تاريخ الحالة أن جيرار قد عانى من عدة أمراض متعاقبة :

عدوى بعد الميلاد مباشرة تطلبت إدخاله المستشفى ؛ مما أدى بطبيعة الحال إلى غياب الاحتكاك الجسدى ، فيما بين الأم وطفلها فى علاقة باكرة ، تلتها أزمة ربوية فيما بين سنتين ونصف وأربع سنوات، بعد فاصل من الصحة والعافية ، ثم ظهر التجوال الليلى فى سن سبعة أعوام .

هذا وقد كان «جيرار» محطاً لاهتمام من جانب والديه بسبب سوء صحته ؛ مما أدى إلى علاقة تتسم بالحماية الزائدة مغلفة بالقلق من جانب أمه ، إلا أن أباه لم يستبعد بل ساهم فى جو القلق الذى أحاط بالطفل . ومن ثمَ .. فإن الحماية الزائدة المشوبه بالقلق أدت إلى تعطل الاستقلالية الذاتية لدى الطفل ، كما أدت إلى الإشباع المباشر لكل رغباته .

ويرى المحلل أن «جيرار» ينتمى إلى فئة عصاب السلوك ، الذى يتميز بالتوافق الشديد مع البيئة والبحث الدائم عن سند خارجى ، كما يتميز بفقر فى التخييلات وغياب الأحلام .

ويهدف المحلل بيان (كيف) أن الربو الشعبى لايقتصر على بناء نفسى واحد ، وإنما تتعدد الأبنية النفسية للطفل المريض بالربو وتختلف من طفل إلى آخر .

وسنتخذ الحالة السابقة كمثال لتأكيد اختلاف الأبنية النفسية للطفل المريض بالربو ؛ إذ إنه فى بعض الحالات ، يقترب فيها بناء الشخصية من الشخصية الربوية التى وصفها «بيير مارتى» "MARTY" ، وعلى العكس فإنه فى حالات أخرى يتميز بناء الشخصية بأنه اكتئابى أو عصابى أو

ينتمى إلى عصاب السلوك ، أما التجوال الليلى .. فينتمى إلى المصاعب الاختيارية الخاصة بمرحلة الكمون .

اضطرابات السلوك وعصاب السلوك :

من المعروف أن مصاعب السلوك تشيع بصورة كبيرة فى سيكوباثولوجيا الأطفال فالصخب ، ونوبات الغضب والهياج أو العكس ، الخمول والبلادة ... إلخ .. تعد من بين المصاعب ، التى تنتشر فى ميدان السيكوباثولوجى .

أما الأعراض أو زملة الأعراض – الأنموذج البسيط للتعبير عن الإضطراب – فتنتمى إلى أبنية نفسية ، تختلف فيما بينها ومثال ذلك أن الشرود "FUGÈLE" يظهر كعرض فى أبنية نفسية مختلفة ، ويمكن أن ينتج عن دفعات غريزية عدوانية فى بعض الأحيان ، أو عن دفعات غريزية حصرية فى أحيان أخرى ، أو بالمثل ينتج عن تفعيل للمتخيل وأيضاً قد ينتج عن إسقاطات مضطربة (شاذة) ، دون الأخذ فى الاعتبار القيام بدفاعات معهودة أو القيام بصراعات ، وهكذا يبدو وكأن عرضاً واحداً يظهر (يتبدى) فى اضطرابات متعددة ، منها ماهو عصابى ومنها ماهو قبل – ذهانى ومنها الذهانى .

أما الاضطرابات التى تظهر فى مجال العصاب فيمكن تفسيرها بسهولة فى إطار الرمزية . أما مجموعة السلوك التى يطلق عليها أعصبة السلوك "NEVROSE DE COMPORTEMENT" فتخرج عن هذا الإطار، وتكون عاطلة عن أى معنى رمزى ، مما يميز هذه المجموعة .

ومن ثم فهى تتبدى فى أشكال جد مختلفة ، بل وقد تكون متعارضة

فى مظهرها ؛ فعلى سبيل المثال .. فإنها قد تتبدى فى شكل اندفاع أو العكس بلادة أو خمول ، وفى أحيان ثالثة قد تتبدى فى مظاهر أقل وضوحاً لاتستثير الإنتباه ، وهى حالات أطفال فى سن ماقبل المراهقة ، تتميز حياتهم بشدة التنظيم ، يطلق عليه المحلل اسم عصاب الطفل الهادئ المطيع "Nevrose des enfants" .

ويتميز هؤلاء بالاجتهاد فى المدرسة ، وهم أطفال مثاليون؛ مما يجعل آباءهم فخورين بهم ، إلا أن نظرة أكثر دقة تكشف عن بناء هش، يجعلهم عرضة لكثير من المخاطر وتكشف تاريخ الحالة لديهم عن انتشار الربو الشعبى ، وفقدان الهشية النفسى فى مرحلة المراهقة .

وفيما وراء مايبدو على أنهن فتيات مثاليات يتميزن بالتوافق الكامل مع مقتضيات الواقع ، نجد فقراً أو قمعاً للدفعات الغريزية بشكل واضح ؛ مما يجعل هؤلاء يقترين من حالات يطلق عليها : -NEVROSE FROIDE" NEVROSE BLANCHE" العصاب الصامت .

وسواء أكان شكل العصاب ظاهراً أم باطناً ، فإن مثل هؤلاء الأطفال يعيشون فى سلوكهم – إذا صح هذا التعبير – هذا الذى وصفه «مارتى» على أنه عطل أساسى فى الوظيفية (١) الخاصة بالقبشعور . والقبشعور هو الوظيفة النفسية ، التى تتحكم فى الحركة أو العلاقة فيما بين الشعور واللاشعور . أما الفرق فيما بين ماوصفه «مارتى» ، وما يوجد فى مجال الأطفال ، يكمن فى القدرة العجيبة لدى الطفل على الشفاء أو الارتداد عن

(١) الوظيفية : الوظيفية فى حالة صيرورة (تطور) فالوظيفة النفسية فى مجال الطفولة لا تكون كاملة النضج وإنما فى حالة تطور متصاعد.

المرض ، إذا ماتوافرت له الظروف البيئية أو العلاجية المناسبة .

زملة أعراض السلوك الصامت لدي طفل صغير :

المثال الأول :

عصاب السلوك لدى طفل يبلغ من العمر خمسة أعوام – الثعلبة المزيلة للشعر – تقدم الطفل «فرانك» إلى مستشفى الطب النفسي للأطفال «أنطوان بكلير» ، فى سن خمسة أعوام ؛ إذ كان يعانى من ثعلبة مزيلة للشعر، هاجمته فى غضون خمسة عشرة يوماً، حينما كان يبلغ من العمر اثنين وعشرين شهراً ،حولته إلى طفل أجرد الحواجب والرموش .

وقد أدهش المعالج بحركته المستمرة وعدم قدرته على الهدوء، وبدا وكأنه كان مدفوعاً لرؤية كل شيء ومعرفة كل شيء وكأنه يتحرك بدافع غرزى ، ويقوم بتفعيل بواسطة الحركة عن تمثلات عقلية تندفع بسرعة عجيبة ولم يكن ليتوقف ولو للحظة عن الحركة .

وكشف تاريخ الحالة عن معاناته من اضطراب شديد فى النوم، كما أن ذهابه إلى الحضانة فى سن ثلاثة أعوام كان أمراً صعباً؛ مما جعل الحضانة ترغب فى إستبعاده، إلا أنه مالبث أن أبدى بعض اهتمام بالأنشطة المدرسية ،كما كان اكتسابه للغة طيباً .

وظهرت حركته الزائدة فى سن جد باكرة، منذ أن كان فى المهد عند حوالى سن خمسة أو ستة أشهر ، حتى أن أحداً لم يبغ العناية به، فى الوقت الذى كانت فيه أمه تريد قضاء حاجاتها من السوق. والمدهش فى الأمر أن فرانك كان يبدى حاجة ملحة لوجود آخر إلى جواره على الدوام

(أمه أو أبيه أو ابن عمه) ، وابن عمه فى سن ماقبل المراهقة ، ويعيش معه فى المنزل ،وأراد أن يأتى به إلى غرفة العلاج معه؛ الأمر الذى لم يكن متاحاً بطبيعة الأمر، وكان يطلق عليه «أخى»، سواء على سبيل اللعب أم على سبيل الخلط.

وكانت أسرته تخشى من رحيل هذا الطفل، الذى ارتبط به فرانك، ومن المدهش أن رحيله الفعلى لم يكن أثره بهذا السواء. واتسم «فرانك» بأنه اجتماعى بشكل مبالغ فيه، وكان يتبع سير أى شخص، ولم تظهر لديه علامات الخوف فى مواجهة الغرباء ولم يبد مظاهر خوف من أى كما كان نادراً مايغضب، ولم يبك مطلقاً حتى حينما كان يؤذى جسدياً ولم يذرف ولو دمعة حتى سن ثمانى عشرة شهراً إلى حد أن والده خافا من وجود عيب عضوى، وذهبا به إلى الطبيب.

ورغم أن هذا الطفل كان سعيداً ومرحاً ونشيطاً، إلا أنه لم يكن يتحمل بكاء الأطفال، كما كان شديد التعلق «بعلامة الصناعة» الخاصة بوشاح والدته .

وظهرت الثعلبة فى سن اثنين وعشرين شهراً بعد حادث لم يستطع الطفل تحمله : فأثناء إجراء الفحص البصرى له أبعد الطبيب الوالدين من حجرة الفحص ، حيث سمعا الطفل من الحجرة المجاورة يصرخ لمدة ساعة وعلى أثر ذلك ظهرت الثعلبة . أما فحص البصر فكان بسبب اكتشاف والديه لعشى بصرى موروث، أصاب العين اليمنى للطفل، الذى كان يعانى من قلق فى النوم، وكان كثيراً مايستيقظ من نومه صارخاً وفى حالة هياج وإثارة .

ومنذ أن عانى من مشاكل النوم وضع على يديه قفازاً بزعم الخوف من خدشه لنفسه بأظافره، بعدها حلت فترة مص الطفل لأصبعه بشراهة.

كشف تاريخ الحالة عن نقاط مهمة : فقد تبين أن أم «فرانك» قد عانت من إكزيما فى يديها، مصاحبة بآلام شديدة فى أصابعه،ا التى كانت تدمى وتؤلمها مما نتج عنه قصورها فى حمل طفلها وتناوله بيديها ، وأصر الأب على عزل «فرانك» تماماً عن أمه فى الأشهر الأولى من حياته .

ومع ظهور حالة الهياج والإثارة لدى فرانك فى سن ستة أشهر، تطلبت الحالة ملاحظة دون توقف، وقد أرجع الأب تأخر المشى لدى الطفل حتى سن ١٦ أو ١٧ شهراً إلى هذا السبب، وكان الأبوان من أصل برتغالى، ويعيشان فى فرنسا والأم لاتعمل بينهما الأب يعمل سائقاً .

وبدت مظاهر كآبة وحزن على الأم، وتميزت علاقتها باللامبالاة العجيبة، فلم تبد أى مشاعر تجاه ابنها ولا أى حنان أو عداء، ورغم ذلك فكانت تتحمل إلى حد بعيد صعوبة سلوك إبنها .

كما وصفت طفولتها بأنها معذبة، فقد كان أبوها مدمناً للكحول مما أدى به إلى العنف، وقد انفصل والداها حينما كانت فى سن ثلاثة أعوام، ثم أدخلت مدرسة داخلية ظلت بها من سن الثالثة إلى الرابعة عشر ثم عاشت عند أسرة زوج المستقبل حتى سن ثمانى عشرة عاماً، حينما سافرت إلى فرنسا، وكانت تشكو من العزلة حى تقل معارفها وتغيب إمكانية مساعدة الأشخاص الآخرين لها، هذا وقد ظهرت الإكزيما لحظة وصولها فرنسا، ثم تزايدت مع ميلاد طفلها .

أما الأب فقد أظهر قلقاً شديداً بسبب سلوك ابنه أكثر من قلقه بسبب الثعلبة، واهتم اهتماماً شديداً طفله، وقد يبدى إحساساً بالفخر بطفله، الذى كان يرى نفسه فيه قائلاً إنه طفل جلود لايتعب أو يكل مثلى، فأنا عامل دؤوب شديد الفخر بأنى قد عملت منذ سن الحادية عشرة .

مناقشة الحالة :

الثعلبة :

لاتعرف تماماً الأسباب الفسيوباثولوجية للثعلبة ؛ فهى لاتنتمى لأمراض الحساسية . ويقترح بعض الكتاب انتماءها إلى آليات المناعة الذاتية، استناداً إلى وجهة نظر تشريحية، ويتماشى هذا الافتراض مع سرعة ظهورها .

ويشير المحلل إلى طفلة تبلغ من العمر ثلاث سنوات، فقدت شعرها بالكامل فى ليلة واحدة بعد حادث على الطريق وقعت فيه تحت سيارة مسرعة ولم تصب بخدش واحد .

والواقع .. فإن مايميز الثعلبة هو ظهورها بسهولة بعد صدمة عنيفة أو عدة صدمات انفعالية أو مفاجئة أو أحياناً، عند انقطاع استمرارية نمط حياة المريض. أما مستقبل المرض فيختلف من حالة إلى أخرى، فالطفلة التى وصفناها آنفاً سرعان مانمى شعرها فى غضون السنة، فى حين أن فرانك ظل أجرد لمدة أربعة أعوام، ثم تراجع مرضه أثناء الثمانية عشرة شهراً التى أمضاها فى العلاج . إلا أنه من المعروف أن مستقبل الثعلبة المزيلة للشعر غير طيب، فغالباً ماتستمر الثعلبة إلى مالانهاية .

(أ) سبب اندلاع المرض :

ظهرت الثعلبة لدى «فرانك» بعد عدة أيام من الفحص الطبى لعينيه؛ فى غياب وجود أبويه إلى جواره، فالأثر الصدمى الذى أحدثه تقييد حركته فى أثناء الكشف قد هاجم بشدة أكثر الأنشطة قابلية للجرح لديه؛ أعنى الحركة Motricite؛ مما أدى إلى احتجاز الطفل ومنعه من الحركة إلى انهيار التنظيم الدفاعى الهش الخاص به، والذى كان يخدم تشييد العلاقة بالعالم الخارجى «والعيش فى السلوك»، ومن ثم نرى أثر احتجاز الطفل أيضاً على ضرورة أساسية أخرى، وهى حرية السيطرة من خلال الحركة وهو ما سنأتى إليه فيما بعد .

(ب) إختيار العرض .. لماذا الثعلبة ؟

تمنحنا دراسة الأمراض النفسية – الجسمية فرصة لملاحظة التناسب فيما بين المرض والظروف المسببة له . وفى كثير من الأحيان تبدو علاقة السبب والنتيجة واضحاً، فالطفل كثيراً مايستجيب بشكل اضطراب فى الوظيفية، مثل : فقدان الشهية ذى الأسباب النفسية ، أو الأرق أو اضطرابات الإخراج بناء على سلوك من جانب أمه أو أبيه ؛ فسلوك أحدهما غالباً مايستثير العرض فقهر الطفل أو إجباره على الأكل أو اضطرابات النوم الناجمة عن قطع نومه أو إثارته على نحو مبالغ فيه ، وأخيراً الاهتمام غير الكافى أو العكس المبالغ فيه بالنسبة لضبط الإخراج، إنما تؤدى إلى الإضطرابات السابقة .

وينقد المحللون اللذين ينتمون إلى هذه المدرسة التفسيرات التى تقوم بتفسير الأمراض النفسية – الجسمية فى إطار الرمزية والتى ترى الإكزيما

حاجزاً جلدياً يحمى الطفل من الأم الرديئة أو الربو الشعبى على أنه مرادفاً لصرخات مكتومة لايستطيع الطفل التعبير عنها . أما إختيار العرض لدى «فرانك» فيرتبط بمعاناة أمه من الإكزيما ، ويبدو من السهل أن نفسر الأمر على نحو رمزى قائلين أن جلد «فرانك» يستجيب بالثعلبة حيثما أخفقت الأم فى لمسه ويبدو وكأن هناك عدوى متخيلة من جلد إلى آخر . إلا أن هذا التفسير يبدو تفسيراً ساذجاً والأجدر بنا الإهتمام بالتفاعل الباكر فيما بين الطفل وأمه .

(جـ) غياب الاحتكاك الجسدى :

بدت أم «فرانك» فى صورة كئيبة باهتة أمام المعالج؛ مما أعطى انطباعاً ببناء نرجسى هش لديها . كما ظهر من تاريخ حالتها أنها عانت لسنوات طويلة من وجودها بمدرسة داخلية ،عزلت فيها ثم انقطعت عن بلدها الأصلى وعن أصدقائها وأقرانها، كما أبدت لامبالاة أو عدم فهم لمشاكل ابنها وميلاد طفلها الأكبر، لم يستثر لديها أى فرحة، كما أنها عانت من الإكزيما بعد ميلاده مباشرة ؛مما يطرح تساؤلاً عن معنى الإكزيما فى الإقتصاديات النفسية لدى هذه الأم .

كما نطرح تساؤلاً عن معنى ظهور مرضاً جلدياً مما هو شائع من ظاهرات نفسية ،مثل اكتئاب مابعد الولادة Post - Paotum ، وقد منعتها الإكزيما من الإحتكاك بطفلها الأمر، الذى طالما حاول الأب تفسيره فى ظل صمت تام من جانب الأم ،فما الذى يمكن أن يمثله تحديد الإكزيما فى مكان محدد ،وهو «الأيدى» ؟

نشير هنا إلى حالة أخرى.. فقد تتبعنا حالة لطفل أدخل المستشفى،

وكانت أمه تعانى من تنميل حاد فى يديها، تنميلاً بلا سبب عضوى يمكن أن يفسر وجوده مما يشير إلى ظاهرة «تحول هستيرى» واضح المعنى، يتمثل فى رفض الأم لطفلها، ومن ثم تكون للعرض قيمة معبرة عن دافع مكبوت ،هو إيذاء الطفل عن طريق الخنق ، هذا وقد اختفى العرض بعد مثولها للعلاج النفسى ووقفت على معنى العرض .

ودون الرجوع إلى هذا الأنموذج التفسيرى السابق بالنسبة لحالة أم «فرانك» .. إلا أننا مع هذا نقدم اقتراحاً، مؤداه أن تحديد الإكزيما فى مكان بعينه لم يكن عن طريق الصدفة .

(د) جو من الهجر الأولى للطفل :

أدى عرض الأم إلى إخفاقها فى تناول طفلها يدوياً، مما نتج عنه اضطراب فى الأسس الأولية لشخصيته .

ونأتنس هنا بالأعمال التى كرست لدراسة الجلد بوصفه الغلاف الذى يحمى الجسم كله، ونخص بالذكر أعمال «ديديه أنزيو» Anzieu «الجلد – الأنا» وأعمال «سامى على» المكان المتخيل L'espace Imaginaire .. أما فى إطار المنظور النشوئى فتأتنس بأعمال أجوريا جيرا.

وفيما يلى مقتطفات من أعماله : «يعيش الطفل قبل الميلاد فى مساحة محددة يغلفها الرحم ؛ ويعبر عن نفسه بالحركة . أما أمه فتشعر وكأن حركته هى حركتها ، وميلاد طفلها لايمثل سوى تحقيق لما كان موجوداً من قبل تحقيقاً ملحوظاً ويتماشى مع شئ كان موجوداً من قبل تحقيقاً ملحوظاً ،ويتماشى مع شيء كان موجوداً من قبل ، فالأم تحمل

الجنين شهوراً طويلة فى رحمها الوعائى .

ومن ثم فهى لاتمثل بالنسبة له منزلاً ومظلة فحسب، وإنما تبعث إليه بجوهرها من خلال الحبل السرى ، وهى ليست مجرد غلافاً فكليهما يكون بالنسبة للآخر وجوداً إثنينياً متبادلاً «ويضيف»، ومتى خرج الطفل خارج الرحم يتخذ مكاناً فى العالم هو مهده أو جسد أمه المغلف له ، وهو يولد ولديه عدد من الميكانزمات ، كما يبعث بعدد من الإشارات، يكون عليها أن تستجيب لها باستجابة مناسبة . فالوليد يطلب وينادى أمه وعليها أن تضفى معانٍ على متطلبات الطفل ونداءه والتحقيق الوظيفى لكل من الأم والطفل إنما يفتح الباب أما المجال التبادلى الذى يحمل قيمة الخطاب إبتداء من حل الشفرة الخاصة بالإشارات.(التواصل المبدئى لدى الطفل . مؤتمر السوربون ١٩٧٩) .

«ولايمثل جسد الطفل كينونة فيزيقية محددة بواسطة سطحها أو وزنها أو عمقها، وإنما يمثل محايث الرجل؛ إذ يؤكد وجوده ويمثل جزءاً من عالم الأشكال الطبيعية، فهو ساكن ومسكون فى الوقت نفسه .

وتشد وجهة النظر هذه علماء النفس إلى الجسد مثلما فعل القدماء من حيث أن الجسد يمثل جزءاً من الثنائية الشهيرة «الروح – الجسد» والجلد، هو الغلاف الخارجى للجسد، ومن وجهة نظر تشريحية فإنه يفصل فيما بين داخل وخارج الجسد» .

ويكون علينا أن نحل الشفرة ، وأن نفهم جسد الطفل كما تحاول الأم فهم مطالب طفلها ؛ فبتغيير جسد الطفل يعيش الطفل وأمه أول المشاعر الأولى، ويسعيان إلى تأسيس التناغم فى علاقتهما .

ومنذ أن يولد الطفل.. فــإنه يكون حــاصــلاً على عــدد من الميكانزمات، كما يبعث بإشارات، يكون على الآخر أن يجيب عنها بشكل مناسب وربما يكون الطفل غير قادر على أن يفرق فيما بين ما يأتيه من الخارج ومايأتيه من داخل (الجسد) . وينتج عن استثارة الجلد علاقات تقارب وابتعاد وداخل هذا الإطار، الذى يعد غطاءً وحاجزاً يوحد وظيفة حشوية وإدراكية .

وتبين لدى الحيوانات أن الأمر يختلف تبعاً لتناوله أو عدم تناوله يدوياً . وتتفق على حقيقة هى أنه لدى الطفل فإن العناية بجسده وتحريك وضعه ينتج عنه أثر ينطبع على نموه النفسى . وبالمثل فإن الطفل يعدل من توتره ونأتنس «بجان بول سارتر» "Sartre, J.P." فى كتابه «الوجود والعدم» حيث يقول «إن الضم لايعنى مجرد اللمس ، وإنما يعد بمثابة الوظيفة المشكلة ، فحينما أضم آخر أخلق لبه بلمسى له بأصابعى «فاللمس مجموعة من الطقوس تقوم بتجسيد الآخر» .

ويمضى «اجوريا جيرا» قائلاً : «يحتاج جسد الطفل إلى العناية كعنصر أساسى ، يفضى إلى تعلق الطفل بأمه ذلك أن لمس الأم لطفلها وتناولها له بيدها يشحن جسده ليبدياً فى حين أن الأم بفعلها هذا تشاركه حسيّاً وهكذا تولد طلائع الديالوج [1] . وينبغى أن نؤكد أنه على الرغم من أن الطفل أثناء نموه يستقبل ملامسات ومداعبات أمه له وضعه له على نحو متفاضل؛ ورغم أنه يكون مجرد مستقبل إلا أنه يدركها ممتعاً لسماتها

(١) ديالوج : حديث متبادل بين شخصين   واحد : Mono المقطع الأول
اثنين : di المقطع الأول يعنى

المحددة ، وفى هذه الفترة لايعى الطفل بأن جسده ينتمى إليه .

والأم تحمل طفلها بداخل جسدها المثقل ، ويضاف للطفل رائحة أمه وحرارة جسدها ويعى بهما ، وكأنهما ينتميان إليه ويتعرفهما وكأنهما يختلفان عن رائحة وحرارة الآخرين بفعل ميكانزمات الإسقاط والاستدماج.

وبتخطيه مراحل الانفصال والتعيين الذاتى والتباعد "distancation" ، يكون هناك ذات من خلال أخرى ، وذات للأخرى . وأنه أثناء هذه الفترة التى يكون هناك فيها تقارب مشارك وديالوج حميم.. فإن هوية الأم تتبدل وتتكشف شخصية الطفل . وبلعبة المرآه تتعرف الأم نفسها فى طفلها ، وينكشف الطفل لأمه ولنفسه فى الآن نفسه ؛ فيتراءى كل منهما فى الآخر ، ويشيدان مسافة وينتهيان إلى التفرقة فيما بينهما .

وأثناء هذه الفترة فإن الطفل وبالمثل الأم الواقعية يلعبان معاً حياة تخييلاتيه . وهذه العلاقات تعتبر فى الغالب مونولوج(١) بين اثنين Monologues a deux ، مما يفتح الباب ابتداء من التبادل الأولى لديالوج واضح ، يمكن فهمه فى إطار من الثنائية . «أرق عنيف أولى منذ بداية العمر فى سلوك صامت» .

(ملاحظة رقم ٣) : أتت «أورلى» Aurelie إلى الفحص فى سن ثمانى عشرة شهراً ، بسبب مصاعب شديدة فى النوم ظهرت فى سن جد باكرة ، غاب النوم لديها بعد رجوعها مباشرة من المستشفى ، الذى ولدت

---

(١) مونولوج : حديث ذاتى لغة : Logos

فيه فلم تكمل ليلة واحدة وهى نائمة ، وبدا الأمر كما لو كان دخولها فى النوم أمراً صعباً للغاية ، وكانت تظل لمدة ساعة أو ثلاث ساعات ، حتى تنخرط نائمة والوسيلة الوحيدة التى كانت تهدئ منها هى الشرب ، وبعدها تنام .

وقد فشلت كل أنواع الأدوية التى أعطيت لها بهدف تهدئتها حتى أوشكت أمها على الانهيار . وقد دفعت أمها إلى العلاج شاعرة بأن الاستشارة العلاجية بمثابة إخفاق لها كشخص.

و «أورلى» طفلة جميلة قوية البنية ، تميل إلى السمنة شهيتها مفتوحة على الدوام ، حتى أن طبيب الأطفال نصحها بخفض وزنها ومثولها لخفض كمية الطعام ، الذى تسبب فى شعورها بالجوع ، ومن ثم اضطراب أعنف للنوم .

وقد أدهش سلوكها المعالجة ؛ إذ كانت كثيرة الحركة hyperactive طوال وقت الاستشارة . أما فى منزلها فلم تتوقف عن الحركة ، منذ بداية اليوم حتى نهايته . قد أظهرت نشاطاً لعبياً خاصاً ، فكانت تنتقل من لعبة إلى أخرى بسرعة ، وتكيفت مع ظروف العلاج دون ظهور نمط قالبى جامد stereotype ، أو نمط طقسي .. إلا أن هذا التكيف كان متقطعاً، وبدت وكأنها تبحث على الدوام عن شيء تفعله وتراه .

أما الأشخاص الذين تمثلوا فى ألعابها ، فقد كانوا ملفقين غير معلومى الهوية ، وكانت تبدو نظرتها متحجرة (جامدة) وبرودتها مثيرة للدهشة . وإذا حاول المعالج الإمساك بها تهرب ، وبعد فترة كان يمكن لمسها على نحو عابر .

ولم تبد الأم أثناء الاستشارة أى حنان نحو طفلتها وذكرت أن الطفلة لم تمص أصبعها ، ويعلق المعالج بقوله إنه استطاع ملاحظة غياب النشاط الشبقى الذاتى ، وكذا الموضوع المعبرى من حياة الطفلة .

وتضيف قائلة : «إن الطفلة استغرقها تماماً النشاط الحركى ، وكانت تغضب لو أن أحداً قاطع نشاطها . كما أن الطفلة لم تبتسم قط حتى ولو إبتسامة بسيطة طوال وقت مثولها أمام المعالج . وقد تحدد (رسم) عالمها ككل فى السلوك ، كما لم تبد أى نشاط ليبدى أو متخيل ، وكأن تمثلاتها التى تأتيها عن طريق الإدراك تتحول إلى حركة ، و «أورلى» هى الأخت الصغرى ؛ إذ تكبرها أختها بخمسة سنوات ، ولم يكن حمل أمها لها أمراً مرغوباً فيه ؛ إذ فشلت وسيلة منع الحمل .

وحينما سئلت الأم عن استجابتها لميلاد «أورلى» انطلقت ضاحكة قائلة إن الطبيب قد أكد قوة وسيلة منع الحمل ، وكان حملها محفوفاً بالمخاطر عكس حملها الأول . وكان عليها أن تنام كثيراً ابتداء من الشهر الخامس ، وذكرت أن رغبتها وزوجها كانت فى أن يكون لها أطفال كثيرين فى الوقت المناسب ، وكان الحمل الأول مرغوباً فيه ومنتظراً ، وأضافت إلى ذلك قولها بأنه لاينبغى لأحد أن يحدد لها أى شىء .

وتميزت الأم بالنشاط ودقة التنظيم وقالت عن نفسها : «ليس لدى أى مشكلة ولا أحب أن تكون لدى مشكلة» وقد أتعبها وأنهكها تماماً أرق طفلتها ومنعها من القيام بأنشطتها المعتادة ومسئولياتها ، التى تقوم بها بفخر وإعزاز ، وتبدو أن لديها مسحة من الاكتئاب ومزاجاً حصرياً ، الذى بررت وجودها بسبب تعبها وإرهاقها وعبرت عن أملها فى أن تنام وأن

ترجع إلى إيقاع حياتها السابقة .

وبدا للمعالج أن حاجتها للراحة فاقت رغبتها فى شفاء ابنتها ، وعلم المعالج أن الطفلتين تسجنان فى حجرتهما طوال الوقت فيما عدا وقت الأكل، إذا وضعت سياجاً شفافاً يمكن أن يظهر ماوراءه ويسمح لها بمراقبة الطفلتين .

وحين سئلت عن استجاباتها ، قالت فى دهشة أنهما لأيشتكيان من ذلك. ومن ثم استخلصت المعالجة وجود «علاقة خواء» RELATIONBLANCHE تؤكدها الظروف الواقعية؛ إذ عاشت الطفلة فى عزلة تامة ، والمدهش فى الأمر أن الطفلة قد تحسنت حالتها ابتداء من الجلسة العلاجية الثانية وخلال ثلاثة أسابيع ؛ إذ أصبحت «موجودة فى التواصل» إذا صح هذا التعبير – فكانت تلعب وتجرى لتجلس على حجر المعالجة كما تغيرت قليلاً بالمنزل ، وتعد كلها علامات إيجابية ، تسمح للمعالج بالتنبؤ يسير المرض على نحو واضح .

تطور العلاج النفسى :

بدت مظاهر الاكتئاب والهشاشة فى نرجسية الأم واختفيا وراء سلوك من السواء المبالغ فيه ، وكانت نظرة الأم التائهة تبدو غريبة غرابة غياب الإبتسامة لدى «أورلى» .

وقد كانت الأم (مدام ب) تتجنب النظر مباشرة لعين محدثها، وكذلك كانت الطفلة ؛ الأمر الذى يعنى أن الآخر بالنسبة لها لايحمل أهمية.

وكانت تتحدث ، بينما نظرتها بعيدة وابتسامة على وجهها ، أما الطفلة فمن خلال أنشطتها المتعددة ، لم تبد للمعالج على أنها ذهانية ، إلا أنه كان يخشى تغيراً عنيفاً ، يمكن أن يقلب اقتصادياتها النفسية .

كما خشى معاودة الوهن النفسى لدى الأم ، وكان كلما لفت المعالج انتباهها له ، تحججت بأرق ابنتها وجاء الأب بعد غياب عدة أسابيع من العلاج ودخل أثناء لعبة استغماية ، وذكرت (مدام ب) أن «أورلى» قد بدأت مداعبة والدها فى وقت لاحق من العلاج أصبحت الطفلة مبتهجة بشوشة، كما بدأت تتدلل وتبتسم .

وكانت فى المنزل تربط فيما بين السيدة (أى المعالجة) فى ألعابها بالدمية ، وأصبحت ألعابها مطولة إلى حد بعيد .. إلا أنها أثناء العلاج بدت وكأنها لاتسمح مايقال لها إلا فى حالة واحدة ، بعد لعبة «أم الأولاد» (لعبة طرحية) ؛ إذ قالت كل شيء يوضع فى داخل الأم ، لا فى داخل السيدة هذه اللعبة التى طالما كررتها مراراً .

هذا .. وكانت أمها تصر على أن ترتب الطفلة حجرة العلاج فى نهاية كل جلسة . وبعد مرور أربعة أشهر بمناسبة صراع بين الطفلة وأختها، تحدثت (مدام ب) عن منافسة الطفلة مع أختها ، وكانت هى المرة الأولى التى تعترف فيها الأم بوجود مصاعب شخصية .. فحتى ذلك الحين كانت مصرة على أن حياتها خالية من المشاكل ، وكانت تصف عائلتها بأنها مثالية ، وقد تخلت بالتدريج عن وصفها المثالى لحياتها .

وبدأت فى تذكر طفولتها وذكرت أنها كانت درامية ، فقد مات عزيز لها ومنعت من التعبير عن حزنها أو التحدث عن موته . وهكذا

تميزت طفولتها بأب (حاضر – غائب) ، وقد تحدثت عنه بصوت وهن وكأنها منهكة ، وكأنها قد عاشت علاقة هجر ، أما أمها فقد ذكرت أنها لم تكن مبالية بها .

وهذه المرأة التى بدت قوية على السطح ، ضعفت وانهارت تماماً عند الحديث عن لامبالاة أمها وبدت هشة تماماً . هذا وقد تراجع أرق الطفلة بسرعة ، وأصبحت تنام هادئة بعض أمسيات وحينما تصادف استيقاظها ، سرعان ماكانت ترجع إلى النوم.

ومن المدهش أن نعلم أن شفاء «أورلى» قد تم أيضاً فى المجال الحركى ، فقد حلت ألعاب هادئة مستمرة محل الحركة الزائدة ، وتعلقت بدمية أعطتها لها أمها ، ومن ثم فقد رفضت بقية اللعب مقارنة فيما بينها وبين دميتها ؛ إذ اصطحبت الدمية معها إلى حجرة العلاج ، وكانت تنام وهى تمسك بها ، وهكذا شيد الموضوع المعبرى .

أما الأب والأب والأم فقد شحنتهما بما يمكن أن نطلق عليه مثلما فعل «ميشيل فان» بمقدمات الحياة التخييلاتية» "PRELUDESALA VIE FANTASMATIOQUE" ، وإنتهى العلاج بعد فترة وجيزة نسبيّاً (حوالى ستة أشهر) .

(أ) الأرق :

دفعت اضطرابات النوم الشديدة «بأورلى» إلى العلاج ؛ إذ كان أرقها شاملاً لبداية النوم ونوم الليل بطوله .

وإنشغالها فى لعبها الصاخب الأعصارى أثناء الليل منعها من النوم،

وفى المرات التى كانت تؤخذ إلى فراشها وتخضع لرغبة أمها فى ذلك.. فإنها لم تكن لتنام إلا حينما يأخذها الإعياء ، ثم تصحو بعد ساعتين أو ثلاث مرات متكررة ، ثم تترك الفراش لتترنح صاخبة ، وكأنها تمشى أثناء النوم ، وكانت تدرك الليل على أنه نهار فى بعض الأحيان، وتصحو كى تلعب حتى تقع فريسة الإعياء .

ولم تبدى هذه الطفلة علامات الحصر على أى نحو من الأنحاء، سواء أثناء الليل أم النهار ، وبدا واضحاً أنها تعانى من أرق الاستثارة الزائدة INSOMINIE D'EXCITATION على عكس الأرق بسب الحصر .

وفى هذا الصدد تفرق «أليس دومى» ALICE DOUMIE ، فيما بين الأرق الذى يحدث فى سن سنتين وأرق الحصر وأرق الضجيج والصخب، الذى يعانى منه الطفل الذى يعيش صراعاً مع أمه ، ثم أرق الفرح INSOMINIE JOYUEUX .

وبالنسبة لأزمة «أورلى» .. فإنها تنتمى إلى فئة مغايرة تماماً عن كل ماسبق وصفه . وإذا مادرسنا فى السياق الكلى للحالة ، لرأينا أن الطفلة كانت تحاول السيطرة على الأشياء من خلال الحركة والنشاط الزائدين، ومن ثم كان النوم فترة فقدان السيطرة والتحكم فى العالم ولذلك كانت ترفضه . وإذا تصورنا النوم – فى حالة هذه الطفلة – على أنه يحدث بفعل الإنهاك لا على أنه فترة راحة. أما فترات الأرق ، فكانت شبيهة بالتجوال الليلى ، لبدت لنا أن مجموعة أعراضها إنما تشير إلى اضطراب شديد فى وظيفة النوم ، هذا بالإضافة إلى أن الطفلة قد أعطيت أدوية لمدة طويلة لتساعدها على النوم ، ونحن نعلم أن النوم الذى يستثيره الدواء ، يفتقد إلى

مراحل النوم المفارق الذى تحدث فيه الأحلام .

(ب) التفــــاعل :

تميزت علاقة «أورلى» بأمها قبل قدرتها على المشى بتأرجح شديد، فيما بين أيام إتسمت بالوحدة ، تتخللها لحظات قليلة من التفاعل أو الاحتكاك بالأم . ورغم ذلك فإنها مع قلتها فقد تميزت بالقوة وأثناءها عنيت بها أمها على نحو وصفت بأنه ممتاز ، وأعطتها اهتماماً حكمت عليه أمها بأنه ممتاز ، فكانت توقظ الطفلة وتعلمها كيف تكون مستقلة عنها.

وقد تميزت حياة الطفلة وساعات يومها بالتنظيم الدقيق ، دون مراعاة لاحتياجات الطفلة الطبيعية وإنما إعتمدت فيه على رغبة الأم ورؤيتها الخاصة . ورغم أن الأم لم تبد للمعالجة على أنها حصارية قهرية، فإن ساعات العناية قد تناقصت على نحو شديد ، واقتصرت رعايتها لها على الناحية العملية (الاحتياجات العضوية الضرورية ، دون أخذ التبادل العاطفى فى الاعتبار) .

وحينما تعلمت الطفلة المشى ظلت حبيسة حجرتها ، رغم مساحة حجم المنزل ، وابتعاد غرفة والدها تماماً عن غرفتها . وهكذا فإن التفاعل داخل أسرتها قد اتسم بالقصور التام ، حتى دفع المعالجة إلى إطلاق اسم Domicile hospitalism a الإيداع بمستشفى داخل المنزل ، تناوب فيه غياب كامل للأم مع حضورها .

ونستخلص من ذلك أن وظيفة الأم تتسم بما تطلق عليه المدرسة الفرنسية «عملية» Operatoire ، وتشبه فى وظيفتها الممرضة تلك التى

وصفها العلامة «دونالد وينيكوت» ، ويدور ذلك كله فى جو من الخواء أو العوز الوجدانى "une Relation Blanche" .

(جـ) العلاقة الأوليـة :

إندلع أرق الطفلة فى فترة باكرة ؛ أعنى بعد رجوعها مباشرة من مستشفى الولادة ؛ مما يشير إلى شدة الاضطراب، الذى تطور فى المرحلة النرجسية الأولية : إذاً فهى حالة نشأت عن عوز أو فقر فى إشباع الحاجات الأساسية للوليد ؛ «فالأرق الأولى ذو الطابع الفسيولوجى كما يذهب «مشيل فان» يعتبره الشكل الأولى للتعيين الذاتى ، يتوازى مع فكرة الانصهار فى الأم ، ويكتسب سمه مشبعة حينما يستعاد (التعيين الذاتى) فى فيض من اللبيدو فى المرحلة النرجسية .

ويعد النوم استجابة لحاجة إيقاعية besoin Rythmque ، تهدف النكوص إلى مرحلة من الشحن الليبدى للأنا جنباً إلى جنب ، مع فض الشحن فى كل مستويات العلاقات وهذا الشحن الجديد الذى يصاحب النوم ينبغى ألا نتوقف عن الإهتمام به» .

إن الوليد الذى يتسم ببناء عقلى شديد الرهافة وغير متطور ، يعتمد إلى حد بعيد على أمه فى القيام بدور الدفاع (تلك الدفاعات التى ستؤول وظيفتها للأنا) ، هذا بالإضافة إلى أن الأم فى هذه المرحلة الباكرة تقوم أيضاً بدور حارس النوم ؛ أعنى الوظيفة الأساسية للحلم ، كما علمنا فرويد فالأرق الباكر يمكن فهمه ، والحالة هذه على أنه ناتج عن إخفاق فى السند الأساسى ، الذى توفره فى العادة الوظيفة الحلمية فالنوم قد افتقر إلى دور الحماية النرجسية بفعل قصور الأم فى القيام بدورها الحامى للنوم ، ودفعها

بعيداً للمثيرات التى تقلق نوم طفلتها .

ويمنح وجود الأم الطفل فرصة الاحتكاك فيها بين جسدها وجسده وتناولها له بيديها وعنايتها به ووضعها له فى مهده ، ثم تدريبها له على المشى ، ثم أن يراها ويشمها ويسمع صوتها هذا بالإضافة إلى إشباعها لاحتياجاته الفسيولوجية على نحو مناسب ، مثل استجابتها لجوعه وعطشه ونومه ، وشحن جسده يجعل من الأم أماً جيدة بما فيه الكفاية (١) goodenough بتعبير «وينكوت» .

والأم تمنح الطفل أساسيات لايتسنى لأى شخص آخر منحها ، أما إذا أخفقت فى القيام بكل ماسبق ، يترتب عليه أن يضطرب العالم النرجسى الذى يمثل النوم المرادف الحقيقى له ، وليس مجرد انعكاس (صورة) له .

ويعيش الوليد فى عالم منغلق تماماً ، يتسم بخلط سيكوسوماتى ؛ إذ يحوى عالم الطفل الأم فيعيش فى عالم غير متفاضل على المستوى الجسدى ، وتجرى الأمور فى هذا العالم بنوع من التوازن النرجسى البدائى. أما حالة اليقظة فتضع الطفل وجهاً لوجه أمام أول مشكلة فى حياته ، أعنى توزيع الشحن الليبيدى فيما بين قطبين : الانغلاق على الذات (الشحن النرجسى) والتعلق بالأم (الشحن فى الموضوع) .

(١) أم جيدة بما فيه الكفاية : الأم المعطاءة العادية ، التي تنغمس تماماً فى مهامها كأم وتنشغل بأمور طفلها ؛ الأمر الذى يدوم لمدة أشهر ، تمتد منذ فترة الحمل ، ثم لحظات انتظار الولادة ، ويظل حالها كذلك لأشهر طويلة بعد الولادة ، وتنهمك فى رعاية وليدها وتكيف نفسها تبعاً لمطالبه على نحو بالغ الحساسية .

وإذا نظرنا للأمر من وجهة النظر النرجسية ، يمكننا أن نعتبر النوم بمثابة النكوص المكثف والانقطاع الشامل عن العالم ، الذى لايتحقق إذا تخلل النوم شحنة وجدانية ، يحصل عليها بفعل الاحتكاك بالأم .

وقد أظهرت الدراسات التى كرست لدراسة الأرق الذى يظهر فى فترة باكرة من العمر، أن النوم لايحدث إلا إذا حدث المرادف النفسى للانصهار فى الأم؛ فالنوم بهذا المعنى يعد استعادة للوحدة الأولية (الأم – الطفل) ،فالأرق المبكر الخطير يشير إلى انقطاع الطفل عن سنده الوجدانى، وينطلق الأرق بحرية فى شكل دائرى متكرر يحمل سمة خطيرة من وجهة النظر النفسية (كريسلر – فإن سوليه – ١٩٧٨) (١) .

وإذا ما رجعنا إلى حالة «أورلنى»، لوجدنا أن أسباب الأرق لديها متعددة، وتتمثل فيما يلى : استثارة أمها لها ثم الحياة فى الحركة (عصاب السلوك) . كما أنها عاشت تماماً بسند خارجى (دون أن يكون لديها قدرات خاصة داخلية) ، مع إخفاقات نرجسية مايشير إلى علاقة خالية من الحيوية (خالية من الحياة) devitalisee؛ الأمر الذى يدفعنا إلى النظر فى الأحداث المتبادلة فيما بين النوم والسلوك .

الأم :

اتسمت أم الطفلة بسمات عصابية، تتخلل شخصيتها، بمايمكن أن يضعها فى فئة عصاب الشخصية، أما اضطراب الشخصية لديها فيتبدى فى خضوعها لنمط من الوظيفية، تتخلل مجموع شخصيته،ا دون أن تعى بها أو تعانى منها، ولايستشعر الملاحظ اضطرابها، مثلما يحدث فى

(٥) الطفل وجسده : كريسلر – سوليه – فإن P. U. F. ١٩٧٨.

العصاب، الذى يتضح على سبيل المثال من خلال الدفعات النشطة الحيوية، التى تسم فى العادة العصاب النفسى التقليدى، بما يتضمنها ذلك من تثبيتات ونكوص شامل، يمتص الطاقة تماماً ويوجهها فى مسارات محددة : الحصار والرهاب على سبيل المثال .

وإنما تبدت رهافة شخصيتها فى شكل اضطراب فى التنظيم الجسدى لدى (مدام ب) فى شكل إرهاق وتعب شديدين يحملان طابعاً اكتئابياً، حينما يعترض نشاطها الحياتى المعتاد ؛ فحياتها تنتظم تبعاً لحاجتها للاستقلالية والسيطرة . وفى الأحوال التى تخفق فيها فى السيطرة والتحكم فى الأشياء، فإنها تعانى من حالة من الاكتئاب، وتبين من إخفاق وسيلة منع الحمل هذه النقطة بوضوح فقد كان حملها الأول مرغوباً فيه، وقد خططت له على عكس حملها فى «أورلى»، ومن ثم فقد ولدت هذه الطفلة فى جو من انهيار سيطرة الأم على مجريات أمور حياته،ا ومن ثم وقعت فريسة الوهن النفسى الاكتئابى .

هذا ويشير «كريسلر» إلى ملاحظات عديدة لأطفال رضع (ذكور وإناث)، ولدوا دون رغبة آبائهم وأتوا إلى المستشفى بحالات متعددة .

وفيما يلى ملخص لحالة تبدو ظروفها مماثلة «لأورلى»، مع ظهور الحاجة نفسها إلى السيطرة لدى الأم رغم اختلاف الشخصية .

حالة رقم ٤ : حمل غير مرغوب فيه .. طفل مصاب بالأرق .

.. حملت والده هذه الطفلة الحالة رغماً عنها؛ بسبب فشل وسيلة منع الحمل، ولم تقبل فكرة الحمل رغم حلمها بأن يكون لديها أربعة أو ستة أطفال .وحينما سؤلت عن حملها، لم تستطع أن تفسر سبب حاجتها الشديدة

للأطفال . أما الطفلة المريضة «جرترود» فجاءت إلى المستشفى فى سن ثلاثة أعوام (وهى الثالثة والأخيرة بين أخواتها) ، بسبب أرق ونزوات خاصة بالطعام . والأرق لديها –على عكس «أورلى» – يتميز بمصاحبة الحصر له، والذى ظهر فى شكل كوابيس وفزع ليلى على فترات متقطعة؛ الأمر الذى تفجر فى شكل اضطرابات فى وظيفة النوم، ابتداء من السنة الأولى من العمر .

وعبرت الأم منذ اللحظات الأولى من (المقابلة) عن ألمها العميق بشأن علاقتها بطفلتها، على عكس علاقتها بطفلتيها الكبيرتين التى تميزت بأنها طبيعية .

وبدأت متاعبها فى الظهور منذ ميلاد طفلتها، وأثناء وجودها بالمستشفى إذ وجدت نفسها فجأة مضطربة فى مواجهة وليدته؛! فشعرت بالحيرة والإضطراب .

وحينما التقطت طفلتها لتعطيها الثدى، بدأت الطفلة تصرخ وتفلت منها الحلمة مراراً وتكراراً . واستطاعت الأم فى نهاية اليوم الثالث من ولادة الطفلة أن تجد وسيلة بديلة لإرضاعها، وكان عليها أن تستلقى على الفراش، بينما تنام الصغيرة إلى جوارها، ولكن على مسافة فإن لم تفعل صرخت الطفلة. وتشنجت، وفى هذا الوضع العجيب أرضعتها لمدة ثلاثة أشهر .

أما إذا حاولت أن تأخذ الطفلة إلى جوارها، أبدت الطفلة علامات وكأنها ترغب فى الهروب . ولم تقبل الطفلة حتى وقت قريب أن يضمها أحد بين ذراعيه، كما لو كانت ترفض كل احتكاك جسدى . كما اضطربت

كل أمور حياة الطفلة ابتداء من الطعام والنوم واللبس، ولم تكن قط لتشعر بالإشباع ،أو السعادة بل كانت تبدى مطالبات لاتنتهى ولاتتوقف لأُشياء أخرى ،مثل :الحلوى أو البسكويت أو الخروج إذا كانت بالمنزل، والرجوع للمنزل إذا كانت خارجة.

كما كانت تبدى رفضها الشديد، حينما كانت أمها تعنى بها، ورغم ذلك فلم تكن لتستطيع العناية بنفسها، وكانت تغضب وتنتحب؛ وشعرت أمها وكان طفلتها دائمة الشكوى والحزن غير مشبعة، دائبة البحث عن شيء آخر، وكانت تبدو مزعجة إزعاجاً شديداً الأمر الذى لم تحتمله أمها وأشعرها بالذنب. ورغم كل ماسبق، كانت الطفلة تقضى أيامها بهدوء فى منزل جدتها . وبدت أم «جرترود» مضطربة اضطراباً شديداً تبحث عن فهم طفلتها غير مدركة لما يحدث، وعبرت للمعالج عن حزنها الشديد على نحو بالغ الذكاء والرهافة الحسية، وأضافت أن طفلتها قد تحسنت لدهشتها – عند أخذ موعد مع المعالج، الأمر الذى أرجعته إلى حصولها على أمل فى المساعدة .

وقد شخص المعالج الأم على أنها حالة عصابية، مستبعداً عصاب السلوك أو عصاب الشخصية، أما رغبتها فى التحكم والسيطرة التى بدأت منذ طفولتها، وتأكدت فى سن المراهقة، فقد أعتبرها بمثابة دفاع فى المواقف الأسرية صعبة الاحتمال، وكانت علاقة والديها غير متوافقة؛ إذ كان الأب يهرب ويهجر منزل الزوجية، ثم يعود كى يهرب فترة أخرى، حتى مات فى حادث، وتزوجت الأم بعد سنة من موته .

ورغم اختلاف الأبنية النفسية (فيما بين أم أورلى وأم جرترود)،

ورغم تشابه سلوكهما بشأن الرغبة فى السيطرة ..فإن العرض الذى تبد لدى الطفلتين كان واحداً : أعنى الأرق، وكان أرقاً بسبب الاستثارة لدى «أورلى»، بينما كان بسبب الحصر لدى «جرنزود» .

وقد أبدت (مدام ب) مرونة شديدة وتقبلاً جيداً لمقترحات المعالجة، وأدركت بسرعة ما افتقدته ابنتها، ومن ثم نظمت حياتها بشكل عاجل، وانتهت عزلة أطفالها، وشجعت احتكاكها بأبيها وغيرت مكان فراش «أورلى»، ووضعته فى ظروف مناسبة.

وتقول المعالجة إنه كان يكفيها أن تتبين من خلال العلاج ومن ألعاب «أورلى» المتكررة بالدمية الأثر المؤلم لإبعاد الطفلة وعزلتها فى حجرتها، وكذا فقد تحررت الأم من سلوكها الجامد بسبب تعبيرها عن مشاكل حياتها هى وماضيها ؛الأمر الذى لم تقدر عليه من قبل، وقد أدت التعديلات السابقة إلى تغيير الطفلة فى الوقت نفسه، الذى كانت تخضع فيه للعلاج .

مناقشة مقارنة للحالات :

تبدو حالت «فرانك» و «أورلى» متشابهتين، ولذلك يبدو من المناسب تحليل هذا التشابه .

أولاً : السلوك :

إن أكثر المظاهر وضوحاً فى الحالتين تكمن فى مظاهر الحركة الزائدة غير العادية بالمعنى الواسع للتعريف؛ إذ تحمل معنى مزدوجاً على المستوى الحركى وعلى مستوى الانتباه بالإضافة إلى قصور فى

القدرةعلى البقاء لحظة أو اثنين على الوتيرة نفسها أو فى القيام بنفس النشاط.

وقد تميزت زيادة الحركة لدى «فرانك» بشدة غير معتادة، حتى أن معظم من فحصه من المتخصصين قد اعتبروها حالة فريدة (لم يروها من قبل) حتى أن البعض شك فى أنها حالة ذهانية يطلق عليها hyperkenie Majeur (الحركة الزائدة الكبرى)، فى حين شخصها البعض الآخر على أنها حالة إثارة هوسية، إلا أن الفحص الأكثرعمقاً ودقة وضع أيدينا على سلسلة من الأنشطة، التى يبدو فيها الطفل متكيفاً مع واقعه، دون وجود علامات بدائية مقلقة مثل تلك التى تظهر فى حالات ، الذهان، وكذلك دون وجود (ظهور) علامات قالبية جامدة . .

وقد جلس «فرانك» كى يرسم على المنضدة فى حجرة العلاج، ورتب المكعبات من حول ورقة الرسم ورغم ذلك.. فلم تكن هناك مظاهر طقسية فى فعله هذا، ثم رسم رجلاً وعلق عليه باختصار تعليقاً ينتمى إلى الإطار الأوديبى، ثم بدأ فى الخروج من الغرفة والدخول فيها ليرى ابن عمه، وكان فيما بين وقت وآخر يعبث بالألعاب فى سرعة بالغة .

وبالمثل.. فإن التراجع السريع للإضطراب بفعل العلاج كان يكفى إستبعاد وجود إضطرابات ذات طابع قبل – ذهانى أو ذهانى . وكذلك فإن تراجع المرض فى حالة «أورلى» كان بالمثل سريعاً ومدهشاً ولايقارن بحالات الحركة الزائدة ويختلف الحركة الزائدة لأطفال سن الثانية من العمر . وعدم قدرة «أورلى» على الثبات كان واضحاً وضوحه عند «فرانك» وفى هذا الصدد لابد أن نشير إلى التعارض فيما بين وجهات النظر حول

المفهوم العضوى «العطب المخى الأصغر» Legion cerebrale minimale فالعشى الخاص «بفرانك» قد يميل بنا إلى تعضيد وجهة النظر السابقة إن لم يكن تراجع المرض قد برهن على العكس . إلا أنه رغمها قد يكون للعشى دوراً فى فهم الحركة الزائدة لدى «فرانك» .

التعبير الحركى فى شكل عدم الثبات :

يعد عدم الثبات Instabilite هو الشكل الأكثر ذيوعاً من بين اضطرابات التعبير بالحركة فى مجال سيكوباثولوجيا الطفولة وأهم مسببات هذا الاضطراب يرجع إلى الإحباط الباكر وقد عرضنا على أن الحركة الزائدة تعد المرادف الإكلينيكى للإهمال الوجدانى أو العوز العاطفى . وفى هذا الصدد يمكننا الرجوع إلى العديد من الدراسات التتبعية التى أجريت على الأطفال المبتسرين والتى خلصت إلى أن أكثر الأشكال المرضية ذيوعاً هو التعبير بالحركة عن الإضطراب (الطفل وجسده) مما يشير إلى استمرارية غائية ودلالة :

(١) فى العامين الأولين من الحياة تظهر حركة قهرية أو عادات عصبية مثل الأنشطة الإفراغية ذات الطابع الشبقى – الذاتى والعدوانى .

(٢) إيقاع حركة الرأس والجسد والحركات الدفاعية والأنشطة الإفراغية ذات الطابع الشبقى – الذاتى والعدوانى .

(٣) فى وقت لاحق : تظهر اضطرابات التنظيم الحركى – النفسى فى شكل اللزمات وعدم الثبات واضطرابات .

واضطراب Practico - guosigues dyspraxia مع اضطرابات وخلل فى القطاع الإدراكى (تنظيم المكانية والزمانية واضطرابات

سيكما [١] الجسد) هذا وقد أكد «ميشيل فان» على هذا المسار التطور
فى منظور اقتصادية . فالميكانزمات النفسية التى تعمل من ور
التنظيم الحركى يمكنها أن تنقسم إلى نمطين :

الأول :

مصاعب واضطرابات تحمل قيمة تعبيرية expressive – مثـ
الحصار والقهر الذى يعبر عن الإضطراب فى شكل لازمات Tíćs ومـ
خلال هذا المنظور يمكننا مناقشة عدم ثبات «فرانك» على أنه نشاط يحم
طابعاً هوسياً كدفاع فى مواجهة اكتئاب يجرى من تحته (وراءه) (-ous
jaceut تحتى) .

أما النمط الثانى :

هو وجود عائق فى التعبير العقلى (النفسى) mentalisation مـ
نسق يقترب من التنظيم السلوكى ولذلك فمن المناسب تفسير عدم الثبات
لدى كلاً من فرانك وأورلى فى إطار يبتعد عن الرمزية وعن كا
ميكانزمات الدفاع العصابية ، فإن نشاطهما لايعد نتاجاً miseuscene
لعمليات لاشعورية . وتميزت «أورلى» باستمرارية الحركة منذ لحظة اليقظ
حتى لحظة النوم، أما «فرانك» فقد شبه بالإعصار ولم تكن الحركة بلاهدف
وإنما تكشف لنا النظرة الفاحصة عن وجود سلسلة من الأنشطة كل منه
شديد التماسك ،حتى أن تصويراً سينمائياً لحركتهما ، إذا ماعرض بالحرك
البطيئة يبدوان وكأنهما طفلين سويين ، ويمكن أن نلحظ نقطتين مهمتين
فى هذا الصدد :

(١) سيكما : إطار أو صيغة إجمالية لمواقف أو لموضوع Schema (E) Schéma (F) .

أولاً : التعلق منقطع النظير بالموضوعات الخارجية وبالبيئة :

فكل شيء يجرى كما لو كان الإدراك المباشر للأشياء ، يتغذى بواسطة ماهو مادى Factuel ؛مما يميل بنا إلى افتراض أن كل مايتمثله الطفل (ذهنّياً) يحوله مباشرة إلى فعل (نشاط) .

ثانياً : الضرورة الجوهرية لهذا النمط من الوظيفية :

وهذا النمط من النشاط ينشأ من حاجة أساسية.. فقد رأينا الطفلة «أورلى» حينما كانت تنتهى من لعبها.. كانت تغلق ثم تفتح أبواب دولاب اللعب لإخراج المكعبات، ثم تذهب لتغلق ثم تفتح باب الحجرة، وكان منعها من القيام بهذه الأنشطة مثيراً لألم شديد غير محتمل، كما أن مصاعب تكيفها فى الحضانة نشأت عن رغبة «فرانك» الدائمة فى الحركة، ويرى وكأن فكرة أو تمثلاً عقلياً يأتيه فيعبر عنه بالحركة، وقد بدأ سلوك «فرانك» يتغير فى الحضانة، بعد أن فهمت مدرسته أن حركته لاتنبع من عدم طاعة، وإنما تنبعث من دافع ضرورى، ومن ثم استطاع الطفل متابعة دروسه .

ويقابل هذه الوقائع فى مجال الرشد ماتطلق عليه المدرسة الفرنسية، التى تطلق على نفسها اسم «مدرسة باريس» : التفكير العملى Pensee Operatoine بعامة أو عصاب السلوك بخاصة. وفى عصاب السلوك لدى الطفل مثلما هو الأمر لدى البالغ ، يحصل الفرد على توازنه النفسى من خلال العالم الخارجى ؛ بسبب عطب (قصور) فى وجود صلابة داخلية، ومن ثم يتعلق الفرد، ويستند إلى الأشياء فى الخارج أو على الأشخاص أو

مواقف تخدمه بوصفها أنا مساعد[(١)] يساند أناه الضعيف .

دافع السيطرة والتحكم :

ظهرت الحاجة إلى الحركة لدى كلّ من «فرانك» و «أورلى» بوصفها مشيدة للتوازن، وتستحق الحاجة إلى القيام بالحركة تحليلاً ؛خاصة فى ارتباطها بالرغبة فى السيطرة، ونتجت الثعلبة لدى «فرانك» لإجباره على عدم الحركة الذى حدث على نحو عنيف ومخضع أما الأرق لدى «أورلى» فيعد نوعاً من الرغبة فى استمرارية السيطرة على الأشياء، وكانت تعارض النوم حتى تقع من شدة الإعياء فيه ؛فالنوم كانت تستشعره على أنه فقداناً للسيطرة على التى تمارسها على العالم فى حالة اليقظة ، كما استحال حصولها على انسحاب شامل للشحن الضرورى من أجل النوم .

ومن المعتاد فى مجال السيكوسوماتيك لدى الأطفال وبالمثل لدى البالغين لامعارضة بفعل العوائق والقيود أو الكفوف التى تحد من الحركة، والتى تتمثل فى وضع حدود أو قيود على الاستجابات السلوكية،..... التى تكون وحدها فى متناول الفرد يستخدمها لإقامة توازنه النفسى .

إن الإخفاق فى التطوير النفسى لمواجهة المواقف الجديدة فى الحياة يؤدى بالفرد إلى أن يقع فريسة الخلط ،أما دافع السيطرة فقد أشار إليه «فرويد» فى عدة مواضع ثم أهمله . ونرى أنه يستحق التقييم مرة أخرى، كما يستحق التعميق وبخاصة فى استخداماته فى إطار الأمراض

(١) الأنا المساعد : مفهوم طورته أنا فرويد تشير به إلى مرحلة لا يكون الأنا لدى الطفل قد تطور بعد ، ومن ثم فإن الأم تلعب دور حماية طفلها من المخاطر النفسية ، وتقوم بدور الأنا المساعد بالنسبة له .

ا يكوسوماتيـة؛ فقد لوحظ أن الاضطرابات الوظيفية لدى الرضع تعكس ضواء على هذا المفهوم، وفى هذا الضوء فقد استخدم «سوليه Soulee» المفهوم بشكل واسع لدراسة فى اتساع القولون الوظيفى megacolon (الطفل وجسده) . أما التشنجات أثناء البكاء ، التى تميز نكوض الوجدانات، فيمكننا دراستها فى ضوء مفهوم دافع السيطرة والتحكم، فالتشنج أثناء البكاء ، يدل على إخفاق فى وسائل الشفاء التلقائى، والتى يستخدمها الوليد، ويتخطى بها المواقف المؤلمة.

ويعد النكوص أكثر محاولات الشفاء الذاتى شيوعاً، ويحدث فى مواجهة الإحباط أو الألم أو الخوف ، ويتخذ النكوص شكل التشنج أثناء البكاء ،أما حدة التشنج فتشير إلى وجود فيض من الوسائل الدفاعية النفسية المعتادة الاستخدام أما السبب الأكثر شيوعاً فى اندلاع مثل هذه الأزمات، فيكمن فى إخفاق إرادة الطفل فى السيطرةعلى الموقف .

ملحوظة نظرية :

إن هدف غريزة السيطرة والتى يفضل كل من «لابلانش» و«بونتاليس» "Laplanche et Pountalis" أن يسمياها دفعة السلطان، وتعنى التحكم فى الموضوع بالقوة، ويشير "Ives Heudrick" الذى عمق هذا المفهوم فى مقالاته عامى ١٩٤٢ و١٩٤٣ . أما فرويد فقد أشار إلى هذه الغريزة أول مرة فى «ثلاث مقالات فى نظرية الجنسية»، ورأى أنها مصدر القسوة فى الطفولة ، إلا أن هدفها الأساسى ليس الإيذاء أو إيلام الآخر، وإنما هدفها مغاير- ولايحسب حساب الألم فى هذا الصدد والرغبة فى السيطرة على البيئة يرجع إلى غريزة مورثة، طالما أهملت فى تراث

التحليل النفسى على حساب مكيانزمات السعى نحو اللذة.

وهذه الغريزة تتسم أساساً بأنها غير جنسية، ولكنها قد تشحن ليبديا على نحو ثانوى ويتحد الليبيدو بالسادية، وتحمل من ثم لذة خاصة هى لذة القيام بوظيفة على نحو ناجح .

وتبدو الحاجة إلى السيطرةعلى الجسد فى مراحل النمو الباكرة لدى الطفل ؛ فالوليد يجد نفسه محمولاً بالقوة دون إرادته ومقيداً فى حركته، ويستجيب لذلك بطريقة عينية؛ فتقييد حركة الطفل أثناء الكشف الطبى مثلاً قد يستثير استجابة مثل الصراخ والتشنج مما يشير للألم .

أما لذة الوظيفية العضلية فتبدو بوضوح فى سنوات العمر الباكرة ، أضف إلى ذلك أن اكتساب القدرة على الحركة بالإضافة إلى مكتسبات أخرى – وكذلك الوقوف والمشى تحدث على ثلاث مراحل أو خطوات تبعاً لاجوريا جيرا (١) مرحلة المنعكس – منعكس المشى الآلى لدى الوليد على سبيل المثال (٢) مرحلة التدريب ، (٣) إستقلالية الوظيفية .

أما مرحلة اكتساب القدرة على الحركة فى أثناء النمو، فتتزامن مع التحكم فى التدريب على التبول والتبرز، ونلحظ هنا الالتقاء العلمى والنظرى فيما بين السيطرة على الحركة والسيطرة على المنطقة الشرجية .

أما زملة أعراض Comportement vide التى تظهر لدى الطفل، فإنها تماثل مايحدث لدى البالغ، ونطلق عليه depression blanche ،إذ يتضح عمل غريزة السيطرة والتحكم، من خلال ملاحظة أن هدفها الوحيد الأساسى (الأصيل) يبدو فى شكل سلوك أو فعل يتحقق (يفعل) ، دون مصاحبة أى شكل من أشكال الانفعالات .

(٣) الفراغ الداخلى Le vide Interieure :

لقد أدهشتنا البرودة الانفعالية التى اتسم بها الطفلان السابقان «فأورلى» وجهت نظرتها الباردة والعابرة للأشياء والأشخاص دون فرق ظاهر ، ولم تبتسم قط وكذلك كان «فرانك» الذى لم يدمع ولم يبك ؛ فقد ظل الطفل حتى سن الثانية من عمره دون دموع ، حتى أعتقد أنه يعانى عيباً فى الغدة الدمعية .

واللامبالاة كانت السمة الأساسية لدى كلا الطفلين ، وعند اعتراض نشاطهما كانا يبديان غضباً شديداً وعدم صبر، ولكنهما لم يبكيا .

وتضاف إلى البرودة الوجدانية السابقة لدى الطفلين ، غياب الأنشطة الشبقية الذاتية غياباً تاماً ، إلا أن فرانك قد مص إصبعه بشكل عنيف فيما بين سن شهرين وثلاثة أشهر ، بعدها وضع له قفازاً لمنعه من ذلك ، وحينما ظهرت عليه مظاهر الهياج أو الإثارة الحركية عند حوالى سن الخامسة أو السادسة أشهر ، كان قد توقف عن المص تماماً .

وعند نهاية السنة الأولى من عمره ، كان قد تعلق بشكل عجيب بقطعة قماش أو (علامة الصناعة) التى كانت فى وشاح أمه ، وكان يتناولها يدوياً وقد اكتسب هذه العادة ، منذ أن أعطته أمه وشاحها ليساعده على النوم ، إلا أنه اهتم فقط (بعلامة الصناعة) وهو بديل غريب عن الموضوع المعبرى (١) ، ويتسم بأنه موضوع أصم غير حسى وغير ناعم

(١) الموضوع المعبرى : تبعاً للعلامة يوتيكوت ، فإن الموضوع المعبرى هو الشيء أو الموضوع أو الدمية أو اللعبة التي يتعلق بها الطفل ، ويتشبث بها ؛ خاصة أثناء النوم أو أثناء حالات العزلة أو الحزن ، فهى أولى «ماليس أناى» ويرمز إلى الثدى وغالباً ما يتميز بملمس أو رائحة محددة ؛ فهو يعبر به من مرحلة اللاتفاضل إلى الوعى بالأنا .

الملمس ، فى الوقت الذى رفض فيه التعلق بالوشاح حريرى الملمس ، الذى قدمته له أمه .

(٤) Une Relation Blanche العلاقة الباردة :

شملت البرودة الانفعالية العلاقة بالموضوع ؛ إذ غاب حصر الشهر الثامن لدى كل من «أورلى» و «فرانك» (مما يشير إلى غياب العلاقة الفريدة الحميمة التى تميز الطفل بأمه فى هذه السن) ، وكذلك لم يستشعر أى شكل من أشكال الحصر الأخرى . غياب الحصر أو الضيق فى مواجهة الغرباء (حصر الشهرالثامن– يبدى الطفل عند حوالى سن ثمانية أشهر أو ستة سروراً بالغاً لرؤية أمه وضيقاً أو حصراً فى مواجهة وجود الغرباء) .

مما يعد علامة حاسمة (تبعاً لشبيتز) على تشييد علاقة بموضوع ليبدى حق ، وهى مرحلة سوية أساسية فى التطور الوجدانى للطفل، ومحورجوهرى فى الوظيفية النفسية ، (رينيه شبيتز ، السنة الأولى من العمر) إلا أن «ميشيل فان» قد طور نظرية «شبيتز» مبيناً أن الحصر فى مواجهة الغرباء ، إنما يعد علاقة حاسمة على وجود ميكانزم نفسى معقد، يعده بمثابة الأنموذج الأولى لميكانزم الفوبيا ، والفوبيا تعد فى التحليل النفسى التقليدى دفاعاً يهدف الإسقاط على موضوع خارجى ، إحساساً بالضيق أو بالحصر الداخلى ؛ بهدف تهدئة الفرد .

ويعد الإسقاط للصراع على وجه الغريب بديلاً عن انطباع غير سار عاشه الطفل من قبل فى احتكاكه بأم محبطة أو الأم الرديئة .

وعلى العكس من ذلك ، فعند رؤيته لوجه أمه الذى يألفه فيعنى أنه رمزاً داخلياً يرتبط بالأم المشبعة أو الأم الطيبة . وهكذا .. فإن حصر

الغرباء فى تفكير «فان» بمثابة فوبيا منظمة للوجدانات وللتفكير .

أما غياب علامات الحصر على الطفل فى مواجهة الغرباء إذا كان شاملاً حقيقياً ، فيعد عنصراً دالاً ، بمعنى يختلف باختلاف الحالة المرضية التى تكون بإزائها، فقد تكون بإزاء فقدان الشهية العصبى (الأنوركسيا) أو الجثاء أو القئ ذى الأسباب النفسية أو الربو .

ويبدو فى الأنوركسيا ، وكأن الطفل قد حول الطعام إلى موضوع رهابى ، وهو مايضفيه عادة على الغرباء ، ومن ثم يصبح معضداً لدافع العدوان ؛ فالطفل المصاب بالأنوركسيا ، يتسم بالود ويبتسم لأى شخص يراه دون تحفظ . ورغم ذلك .. فإن علاقته بالموضوع تكون متفاضلة، ويكون تعلقه بأمه قوياً ، وتهدف الأنوركسيا الاختيارية فى كثير من إلى إثارة انتباه الأم .

ويمكننا مقارنة سلوك هذا الطفل – سطحياً – بطفل آخر ، يبدى عيباً أساسياً فى تشييد علاقته بالموضوع ، وأن مايدهشنا لدى مثل هذا الطفل – فى الأوقات التى لايعكف فيها على ماعتاد عليه التعلق بشدة بأى شخص؛ إذ يتبعه بنظرات متلهفة ؛ وكأنما يتحرك بواسطة «رادار» ... هذا التعلق العابر والشديد ، إنما يعبر عن أنهم فى الاحتكاك الإنسانى .

وبالمثل يشير إلى قصور فى الاستدخال لموضوع ثابت ، ولذلك فإن مثل هذا الطفل يكون فى سعى دائم عن بدائل متتالية ، إلا أنها مع ذلك لاتتعامل بداخله ، ويشير حصر الشهر الثامن فى سياق فهم «ميشيل فان» إلى وجود ميكانزم نفسى ، يختلف باختلاف المرض ؛ إذ يختلف فى مرض الحساسية عنه فى الربو أو الأكزيما ؛ إذ يشير إلى وجود تثبيت على

مرحلة بدائية من النمو ... تلك المرحلة التى يبتسم فيها لأى وجه دون تفرقة، فهو يبتسم طالما يرى وجهاً إنسانياً مما يعد إشارة على وجود مايطلق عليه العلاقة بالموضوع الخاص بمرضى الحساسية فى شكلها الكلاسيكى لدى «بيير مارتى Marty» [١] ، إلا أن أيّاً من الميكانزمات سابقة الذكر ، لاتفسر لنا الظاهرة التى رأيناها لدى فرانك وأورلى؛ إذ إن الطعام لم يكن مشحوناً شحناً سلبيّاً.

وبالمثل لم يكن غياب الشبقية الذاتية المحدودة فى علاقتها بالشبقية - القسرية (الجبرية) فى الجثاء كبديل للعوز العاطفى ظاهرة لديهما ، ولايمكننا تقرير وجود نمط مرضى الحساسية فى شكل خلط وإبدال فيما بين الموضع الأصيل وغيره .

ونرى أن غياب الحصر لدى كل من «فرانك» و «أورلى» ناشئ عن فتور وجدانى شامل يتبدى فى سلوك الخواء Comportement Vide، فهناك عيب فى استخدام العلاقة بالموضوع ؛ إذ إن الإيماجو الأمومى قد ظل غير متفاضلاً ، إذ يتحول الطفل عن أمه ليحصل على الشحن الليبيدى من الأشياء ، وسلوك الخواء يشير إلى تحول الطفل إلى السلوك بسبب فتور وجدانى شامل ، وإذ يسعى للسند والإبقاء على توازنه الرهيف ، من خلال البيئة التى يتخذها بديلاً عن علاقته بالموضوع.

(٥) قابلية تراجع المرضى :

رغم الأعراض التى وصفناها أعلى .. فقد بقى لدى «فرانك» و«أورلى» نواة سليمة ومعدة للانطلاق فى حالة إذا ماتوقف الجفاف

(١) بيير مارتى Marty : مؤسس لمدرسة خاصة فى فرنسا ، حملت اسم مدرسة البيسكوسوماتيك.

الوجدانى (الأمر الذى يتفق عليه عديد من المحللين ، الذين يعملون فى مجال سيكوباثولوجية الطفولة أمثال شبيتز وماهلر وغيرهما) ، ذلك أن الازدهار الوجدانى فى حالتى «فرانك» و «أورلى» حدث فى حالة تغير الظروف وتوقف الهجر العاطفى .

وهكذا .. فقد تحول ماكان موجوداً بالقوة (محاثياً) إلى الحياة ، ثم عاد على عقبيه إنما يفصح عن قدرة غير عادية لتدفق الحيوية لدى الأطفال .

خلاصة :

إن السمات النفسية «لأورلى» وأمثالها من الأطفال ، الذين يبلغون من العمر أقل من ثلاثة أعوام ، والذين درسوا فى العيادة النفسية السيكوسوماتية قد سمح لنا بالتوصل إلى فهم الدلالة الخاصة بزملة الأعراض ، التى يمكن إطلاق اسم «زملة أعراض السلوك الفارغ من الوجدان» عليها .

وقد فحص هؤلاء بسبب مصاعب متعددة وعينية : الأرق الحاد أو إصابات عضوية متكررة أو ثعلبة ، وفى حالة فرانك استطاع الباحث أن يلحظ تحوله من السلوك الفارغ إلى عصاب السلوك .

وسنعرض فيما يلى العناصر الأساسية لزملة أعراض السلوك الفارغ :

أولاً : على المستوى السلوكى :

لاتشير بالضرورة إلى مصاعب فى السلوك (فقد رأينا حالات

هياج)، وإنما نعنى بها حياة تنتظم تماماً حول السلوك ؛ إذ يستأثر بهم السلوك تماماً والإنخراط فى الأشياء والمواقف الملموسة ، ويستثار السلوك بواسطة البيئة الإدراكية - الحركية فى خارج نطاق (بعيداً عن) المتخيل، كما تتخلل ألعابهم الأنشطة التخييلية اللاشعورية .

ثانياً : على المستوى الوجدانى :

نرى غياباً شاملاً للوجدانات ، أما العلامات التى يمكن أن نشير إليها، فهى :

(١) التفاضل فى العلاقات بالموضوع ؛ مما يشير إلى قبول غير مميز لأى شخص يتخذه الطفل رفيقاً ، ولكنه يوجه نحوهم اللامبالاة التى يوجهها نحو الأشياء وموضوعات اللعب .

(٢) فقد أو غياب الأنشطة الشبقية - الذاتية ، وغياب التعلق بموضوع معبرى .

(٣) ظهور علامات على غياب التمايز أو التفاضل فى العلاقات بالموضوع ، تتبدى فى غياب حصر الغرباء .

ثالثاً : لابد من إضافة القابلية لتراجع المرضى :

ويمكن لهؤلاء الأطفال - على عكس الأطفال الذهانيين - فهم وتناول الواقع على نحو طيب؛ فالطفل الذهانى يعيش فى عالم بدائى يمتلئ بالتخييلات القديمة . كما يختلف هؤلاء عن الطفل العصابى، إذ يقع هؤلاء على الوجه النقيض من العملة .

ولابد من الأخذ فى الاعتبار عامل تراجع المرضى فى حالة تعديل

العلاقات أو حالة العلاج النفسى على أنه سمة أساسية ، تسم هذه الفئة من الاضطرابات .

والظروف المسئولة عن الحالتين السابقتين هى القفز الوجدانى الباكر والمستمر من قبل الآف ، وينتمى القصور أو الحرمان العاطفى لأسباب خاصة بشخصية الأم وأحياناً الظروف الحياتية التى تؤدى إلى قطع العلاقة بالأم :.

وسنجد فى كثير من الأحيان – عند دراسة الحالة وفحص الظروف العائلية والاجتماعية – الاقتصادية – أن الحرمان العاطفى الذى يخبره الطفل إنما ينبع من الإنفصال المتكرر عن أمه .. هذا الانفصال الذى برز كسبب أساسى للمرض ، ويتضح أثره بوضوح فى كثير من الحالات المرضية فى مجال الطفولة : مثل وضع الطفل بعيداً عن أمه لأسباب صحية ، أو التبدل المستمر بمن يعنى به أو نقله إلى حضانة جديدة أو تغيير المربيات الواحدة بعد الأخرى .

وتنتشر الأمراض غير النمطية atypique والخفية (غير الظاهرة) أو عصاب السلوك لدى الطفل انتشاراً ذائعاً .

ويسمح لنا وصف الاكتئاب لدى الأطفال الصغار بالكشف عن السمات التى تنتمى إلى مانطلق عليه السلوك الفارغ أو سلوك الخواء ، أما الفروق الأساسية فتنتمى إلى علامات على النمو كما تنتمى إلى الظروف التى عاشها الطفل ، فيندلع الاكتئاب بشكل مقصر بفعل ظروف خاصة بالعلاقات الجديدة ، التى تفض سيرورة النمو الذى يكون حتى هذه اللحظة سوياً ويعبر الطفل بالاكتئاب عن فض علاقاته . إلا أن عصاب السلوك

الذى قد تكون زملة أعراض السلوك الفارغ مقدمة له .. فإنه قد يندلع بعد فترة طويلة من استمرارية المخاطر المسببة للمرض ، كما قد يكون تعبيراً عن عطل فى التنظيم النفسى .

٣

فى الواقـع النفسـى

فى الواقع النفسى

«إنى أقول الشعر–سيدتى لا أعرف من أنا»

نزار قبانى قصيدة «من أنا ؟»

ظلت البشرية زهاء تسعة عشرة قرناً من الزمان ، لاتعرف عن «النفس» الكثير ، حتى جاء فرويد (١٨٥٦–١٩٣٩) ، وفطن إلى مالم يفطن إليه أحد من قبل، وتوصل إلى فهم الإنسان بما هو إنسان ؛ فقد تسنى لفرويد دون غيره أعظم الحدس فى تاريخ علوم الإنسان ؛ بسبب تحليله النفسى الذاتى Auto-analysis ، ومقاومته للقوى المجهلة بداخل نفسه .

لقد فطن فرويد إلى أن مقاومة الكشف عن أعماق النفس لاتأتيه من مرضاه فحسب ، وإنما تأتيه أيضاً من نفسه ، فكان أن صمم على أن يزيل هذه العقبات الأخيرة حتى يظفر بالحقيقة الكاملة ، (زيور – فى عبقرية فرويد ص٩٥) ، ونجد فى رسائل فرويد إلى صديقه «فليس Fleiss» شاهداً على صراع جبار فهاهو يكتب لصديقه فليس ، قائلاً : ماكنت أتصور يوماً شيئاً يشبه مايتنتابنى الآن من شلل عقلى ، وأن فى كتابة كل سطر لعذاباً . وها أنت تستأنف عملك موفقاً على حين أنى أرهف السمع والبصر فلا أسمع ولا أرى شيئاً ... لقد عانيت أخيراً مايشبه الأزمة النفسية ، تصحبها حالات لاأدرك كنهها ، وكأن ذهنى ملبد بالسحب ويخالجنى شك مستتر ، وقلما ألمح بصيصاً من الضوء ها هنا أو هناك ... وأعتقد أنى فى حالة

كحالة الشرنقة ، ولايعلم إلا الله أى وحش سيدلف منها» . (مصطفى زيور- فى النفس) .

ولذلك .. فإن خبرة فرويد فى التحليل النفسى هى خبرة فريدة ، كما يقول لاكان ، لاتدانيها أى خبرة لمحلل آخر من المحللين ؛ إذ انفرد بتحليله لذاته ، وصمد أمام قوة المجهلة méconnaissance وأمام كل خوف طلباً للحقيقة .

ويبدو كأن تحليل الإنسان لنفسه يكاد يكون أمراً مستحيلاً فالقوى المعارضة شديدة البأس ، أو يقول عن تحليله لذاته «إن التحليل الذى أجريه على نفسى إنما هو أهم ما أقوم به الآن ، وإنى أتوقع أن أصيب منه فائدة عظيمة عند إنجازه . وعندما بلغت منتصف الطريق منه انقطع حبله فجأة وأحسست كأن وثاقاً داخلياً يقيدنى . ذلك الوثاق الذى يشكو منه مرضاى أعظم الشكوى . وقد امتنع علىّ السلوان .. ليس فى وسعى إلا أن أزحف وأصبر حتى يأتينى الحلم التالى بشىء من الضياء .. إن تحليل الإنسان لنفسه يكاد يكون أمراً مستحيلاً فالقوى المعارضة شديدة البأس (فى النفس، عبقرية فرويد ص٩٦) .

وبالإضافة إلى مجاهدة النفس التى قام بها فرويد فى نضاله الأعظم مع ذاته .. فإنه استطاع أن يحقق قول هيرطس «أن نتوقع مالاً هيراقليطى ينتظر» .

ولذلك يمكننا أن نقول إنه دون «التحليل الذاتى» لفرويد لما كان التحليل النفسى ، ورغم أنه كان متسلحاً بعلوم متعددة (منها النيورولوجيا والفسيولوجيا والفلسفة وعلم النفس) .. فإنه استطاع أن يجابه خبايا ذاته ،

وأن يتغلب على قوى المقاومة الذاتية وأن يمسك بما فى أعماقه ، فأمسك بدوال المكبوت ، وعاش جدلاً فيما بين مايكتشفه بداخله هو ومايكتشفه بداخل مرضاه على نحو مرآوى ».

ولايعدو أعظم مؤلفاته قاطبه «تفسير الأحلام» أن يكون مقتطفات من أحلامه هو التى اتخذ تفسيرها سبيلاً لتحليله النفسى الذاتى .

ويعلق لاكان (١) فى افتتاحية السيمنار الأول لمؤلفه سابق الذكر بقوله : إن فرويد عاش فى عصر العلوم الطبيعية ، ورغم ذلك فإن كتابه «تفسير الأحلام» إنما يتميز بنكهة مختلفة عن كل مؤلفاته ، ففى هذا المؤلف نقف مشدوهين أمام كثافة المعلومات النفسية؛ إذ يعيد (فرويد) تقديم المعنى Meaning ويتقهقر فرويد – كما يذهب لاكان فى هذا المؤلف– إلى أكثر أنواع التفكير بدائية فهو يقرأ شيئاً فى الحلم ، وحينما يقرأ فرويد حلماً فإننا نجد أنفسنا غارقين فى المعنى» (لاكان : السيمنار الثانى)

ورغم أن فرويد قد درس فى كلية الطب ومارس التشريح والفسيولوجيا فى معمل أستاذه بروكه Brucke، واعتنق مبادئ مدرسة هلمهولتز فيما يشبه الاعتناق الدينى ، الذى مؤداه أن كل شيء يمكن اختزاله فى قوة فيزيقية من الشد والجذب ، ومتى اتخذ الفرد هذه الأسس واعتنقها فلا داعى للذهاب إلى ماهو أبعد .

ورغم ذلك .. فإن فرويد – كما يذهب لاكان – قد تجاسر وذهب

(١) جاك لاكان : محلل نفسي فرنسي، أعاد قراءة كتابات فرويد وعلق عليها ونقدها، ثم أعاد صياغتها في نظرية شمولية جديدة حملت اسمه .

إلى الأبعد ، فقد التفت إلى أهمية مايحدث له وإلى أهمية أحداث طفولته وإلى مشاكله العصابية وإلى أحلامه ، ولذلك فإن فرويد بالنسبة لنا هو الرجل الذى يحمل مثلنا جميعاً كل ماهو عارض - الموت الأنثى والأب، «فقد عرف فرويد منذ البداية أنه لم يصل إلى فهم المرض النفسى إلا إذا حلل نفسه» .

وفى هذا الصدد يكتب إلى فليس: «إنى أكاد أكون الوحيد هنا فى جهادى فى الكشف عن طبيعة المرض النفسى . ويعتبر الزملاء جهادى نوعاً من الهوس» .

هذا .. ويرى كل من جرينبرج وميتشل Greenberg & Mitchell أن التحليل النفسى من صنع رجل واحد هو فرويد ، الذى تسلح فى بداية الأمر بمنهج استعاره من صديقه بروير Breuer ، ولكنه مالبث أن انطلق فى طريقه وحده - لمدة عشرة أعوام دون شريك متسلحاً بعلوم مختلفة : النيورولوجيا والفسيولوجيا والفلسفة وعلم النفس ونظرية التطور ، (نظرية فى العلاقات بالموضوع) .

هذا .. وقد تتابعت مكتشفات فرويد فيما يشبه الثورة على كل المعارف السابقة؛ إذ سمحت له الفنيات التى استخدمها إلى تخطى آفاق الوهم Illusion بأن الإنسان يعرف نفسه وأنه مركز ذاته . وبهذا المعنى.. فإن ثورته فى مجال علم النفس تصبح مماثلة للثورة ، التى أحدثها كوبرنيقس فى مجال الفلك من حيث أن كليهما قد غير «المركز» decentering ، فلم تعد الأرض مركز الكون ، ولم يعد الإنسان مركز ذاته، وإنما أصبح بتعبير لاكان ex- centric «بعيداً عن المركز : ذلك أن سلوكه

يفصح عن شيء آخر بعيد عن المحور axis . وهكذا فإن التحليل النفسى قد غير المنظور ، غير علاقة الإنسان بذاته ، فالحقيقة .. حقيقة الإنسان لايمكن أن يمسك بتلابيبها من خلال المعرفة المحددة bounded knowledge ، مثلما يحدث فى العلوم الطبيعية أو فى علم النفس السلوكى (لاكان السينمار الثانى) .

فالإنسان لاينطبق على نفسه : فهو ماليس هو ، وهو ليس ماهو ، كما يذهب مطفى زيور (فى النفس) .

وبالنسبة لفرويد .. فإن حقيقة الإنسان تكمن فيما وراء الشعور ، أعنى فى «اللاشعور» Unconscious . وبالنسبة لمحللين آخرين مثل لاكان وأتباعه ، يكمن فى الآخر (الصورة المرآوية ، وكأن الوصول والحال هذه إلى كنه الإنسان ليس بالأمر السهل .

وهكذا ، حينما اكتشف فرويد اللاشعور .. فقد خلق حقلاً فريداً من المعرفة ، وابتدع مساحة جديدة قلبت كل المعطيات المباشرة رأساً على عقب ، وبزغت معارف جديدة ، وأصبح للواقع معنىً جديد.

فقد أعطانا المعلم واقعين : الواقع المادى الموضوعى – إن كان كذلك ، وواقعاً آخر هو الواقع النفسى Psychic Reality ، بل لقد ذهب إلى ماهو أبعد من ذلك ؛ إذ رأى أن للواقع النفسى أثراً أعظم وأقوى فى المرضى النفسى عن ذلك الواقع الموضوعى .

وهكذا أصبح جوهر التحليل النفسى يكمن فى رحلة البحث عن الحقيقة اللاشعورية ، رحلة الوصول إلى ماهو سريالى Surréel أو اللاواقعى irréel أو ماوراء الشعور .

وكما أعطانا فرويد هذا الحقل الفريد أو المساحة الجديدة ، أعطانا مفاتيح للوصول إليها . ففى كتابه «تفسير الأحلام » حل الشفرة ، شفرة اللغز ، اللاشعور فاللاشعور كما يبين فى الحلم يتحدث بلغة يمكن فهمها .. لغة لها دلالتها ومنطقها لاخاص فإذا تسنى لنا قراءة هذه اللغة وصلنا إلى فهم اللاشعور .

فاللاشعور يمتلك منطقاً يختلف عن المنطق الشعورى هو منطق العمليات الأولية Primary Process .

وهو المنطق ذاته الذى ينسج هذيان المريض على منواله ، ويعبر عنه فى الحلم ، ويتمثل فى النقل displacemen .. ذلك النقل الذى يعبر به التمثل العقلى ، ويتخذه سبيلاً إلى معنى آخر أكثر قيمة ؛ إذ هو المعنى الأصلى بقدر مايستخدم التكثيف condensation الذى يتخذ بواسطته التمثل العقلى كل المعانى والقيمه التى تنتمى إلى سلسلة أو مجموعة من التمثلات الأخرى ، التى ترتبط بعضها البعض عن طريق سلسلة من التداعيات . وتعد الحتمية المتعددة overdetermination فى العرض النفسى أنموذجاً ثانياً لوظيفية اللاشعور فى إقامة عرض مرضى؛ إذ تتعدد المسببات من وراء العرض ، (لابلاش وبونتاليس . صـ١ ٣٤ الطبعة الفرنسية) .

وهكذا .. فإن للاشعور عقلك منطقاً خاصاً «يختلف تمام الاختلاف عن المنطق الشعورى ، ومن ثم فقد اخترع فرويد لغة جديدة .. لغة اللاشعور التى يمكن قراءتها لمن أمسك بناصية فهمها ، وهكذا يرى لاكان أن عبقرية فرويد تكمن فى حله لشفرة اللاشعور «وأصبح بالإمكان أن

يسمع بأذن ثالثة ، مالم يتمكن سماعه بأذنيه ؛ بمعنى أن فرويد قد قطع بالتدريج أواصر الارتباط بالمعارف المسبقة طبية كانت أم نفسية؛ ليجد نفسه على طريق اللاشعور ، إلى أن يمكن في النهاية من استقراء وجوده ، (مركز الإنماء القومي ، بيروت) .

وفي هذه الصدد ، يقول عدنان حب الله في كتابه من فرويد إلى لاكان : «إن مهمة التحليل النفسي يحمل انقلابيه ؛ إذ إن موضوعه الأساسي هو الكشف عن الرغبة الديناميية في اللاشعور انطلاقاً من الشعور المموه للحقيقة .. فيعني هذا أن منهاجية التحليل النفسي هي الحديث بالمقلوب ، وهو عمل مغاير تماماً للمنهاجية العلمية ، حيث إن الاكتشاف يأخذ منحى إيجابياً؛ أي ينتقل من نظرية متخلفة إلى نظرية جديدة متطورة .

ولنرجع لكتاب «تفسير الأحلام» ، الذي كان بمثابة الانقلاب الرئيسي، الذي انتقل من خلاله فرويد من عالم البيولوجي والفسيولوجي إلى عالم الرموز ؛ إذ اكتشف الرمز في جدليته .. في دلالته .. في تقلبه .. في تحريك الكلمات في النكات .. في الإعراب عن الرغبات ... كل ذلك اكتشفه في هذه الآلة الحالمة» . والمدلول هو المكتوب الذي لايفتأ أن يعود، ويبرر وجوده بعديد من الدلالات ، التي تكون حلقات سلسلية عدا الاستعارات والمجازات للرغبات البشرية التي لاتحد ، أو للغرائز التي أدى تقدم الإنسان إلى إهمالها وتجريدها من فعاليتها ، فهي بمثابة تاريخ الإنسانية القديمة بهمجيتها وبدائيتها .

ويتحدى لاكان المحللين بأنهم قد أخطأوا فهم فرويد، إذ لم يفهموا

فكرة أن اللاشعور بنية structure فى حد ذاتها، لها تركيب شبيه بتركيب اللغة وإن كانت لغة بدائية تذكرنا بمحاولة الناسخ الأول على ضفاف النيل، أو فى سامراء وهو ينسخ أولى المخطوطات، متنقلاً من اللغة التصويرية إلى اللغة الفكرية الرمزية (مصطفى صفوان الفكر العربى المعاصر عدد ١١ ، ١٩٨١) ؛ فالحلم إذاً نص يقرأ .. نص ظاهر يخفى من ورائه نصاً خبيئاً كائناً ، يتطلب الوصول إليه سلسلة من التداعيات والأفكار المترابطة بعضها البعض بمعانٍ وصور أخرى ، إلا أن التنسيق فيما بينهما لايأتى عن طريق الصدفة ، وإنما يرضخ لقوانين ، تتحكم فى تكوينه هى العمليات الأولية ؛ ففرويد هو شامبليون عصره ، هو أول من حل شفرة اللاشعور على غرار حل شفرة الكتابة بالهيروغليفية ؛ إذ اعتبر الحلم بصورة أشبه شيئاً الهيروغليفية من حيث هى كتابة مصورة .

وفرويد باكتشافه للقوانين التى تحكم اللاشعور ، وهو بصدد تفسير ودلالة يختلفان عن المنطق الشعورى ، وهكذا نستطيع القول مع فرويد أن تفسير الأحلام هو الطريق الملكى إلى اللاشعور ، ويصيب الشاعر الإنجليزى شيكسبير حينما يقول فى مسرحيته العاصفة : «إننا مصنعون على النول نفسه الذى يغزل به الحلم» .

إن الحديث عن قوى المجهلة يقودنا إلى التساؤل حول «الإدراك» Perception ، وهناك أسباب تجعلنا نتبين أن الحياة الواقعية (الموضوعية) تحمل التباساً فى المعنى؛ إذ يقول دانييل لاجاش فى مقال له بعنوان «التخييل والواقع والحقيقة» إن ماندركه من البيئة ليس ماينصاع لرغباتنا، بقدر ماهو ذاك الذى يمتنع عليها، فالإدراك ليس جزئيًّا فحسب ، وإنما هو

متحيز أيضاً من حيث أنه يصوغ الواقع على أنه تضاد – الرغبة ..

وأن المعرفة الموضوعية يلازم المجهلة ، التى تتسم بها ميكانزمات الدفاع . ومن ثم .. فإن القهر الدفاعى يستبعد كل ماهو غير سار ، وليس أدل على ذلك من أن المرء يميل إلى ألا يدرك فى نفسه أبعاداً غير معقولة اجتماعياً .

إن للاشعور منطقاً لايدركه العقل الشعورى ، ولكن العقل بوسعه الكشف عنه (باستخدام المنهج الأساسى فى التحليل النفسى ، وهو التداعى الطليق وفهم عمل العمليات الأولية) ، وهذا يعنى أن الأسباب العقلية موجودة فى حالة كمون فى اللاشعور . وبعبارة أخرى .. فإن اللوغوس Logos موجود من قبلِ فى الميثوس Mithe ؛ أى إن الدلالة والمعنى موجودة من قبل فى صميم مالامنطق له (أى اللاشعور) ، ولو لم يكن كذلك لامتنع على العقل أن يكتشف ماوراء المنطق الشعورى .

والمحلل النفسى يتسلح بالقاعدة الأساسية ، التى تسمح له بالانتباه الهائم ، Hovering Attention بمعنى أن يسمح للاشعوره هو أن يلتقط مايتبدى فى خواطر المريض من أفكار ومعان لاشعورية . وكأن المحلل حينما يتدرب على حالة الانتباه الهائم ، إنما يسمح للاشعوره هو الذى سبق وأن درب عليه أثناء تحليله أن يكون قريباً منه ؛ بحيث يستطيع التقاط المعانى اللاشعورية فى ثنايا خواطر المريض ... وهكذا يلتقط لاشعور المحلل لاشعور المريض، فيما يشبه تخاطب الصم .

ويفرض التحليل النفسى على المحلل أن يخضع هو نفسه لعملية التحليل النفسى ، ومن ثم يسمع لاشعوره ويقترب منه ، الأمر الذى يصبح أداة فى المعرفة Connaissance ، وبالمثل .. فإنه يعيش ويتعلم وظيفية

ديالكتيك (جدل) الطرح تضاد الطرح Counter - trenseference .

إن التحليل النفسى فى صميمه علاقة بين – إنسانية Interhuman؛ فقد فطن فرويد إلى فكرة تضاد – الطرح ، ومن ثم حول التحليل النفسى إلى علم نفس كيانين Two-Body Psyclology ، بتعبير المحلل النفسى الإنجليزى بالنيت Balint.

إن العلاج بالتحليل النفسى لايتضمن علاقة أحادية الاتجاه ، وإنما يتضمن علاقة ثنائية الاتجاه ؛ فالمريض يتحدث عن نفسه للمحلل ، فيصغى له هذا الأخير وقد يقع فى عثرات ومقاومات ذاتية – رغم تحليله هو – ذلك لأنه قد يغيب عليه فهم ماقد غاب فهمه فى نفسه أثناء تحليله هو . «لاتوجد حقيقة سوى فى الخيال . جول رنارد» . "La vérité in'est que dans L'imagination Jules Renard"

الواقع والحقيقة فى التحليل النفسى :

يعد عمل المحلل النفسى فى صحيحه «بحثاً عن الحقيقة» ؛ ذلك أن مايقدمه المريض أثناء العلاج – من مناظر فى الماضى ومن أحداث فى الطفولة إنما تدفع بالمحلل إلى تساؤل أساسى حول المفهوم الفرويدى الأساسى فى تكوين الأعراض ، أعنى مفهوم «فى وقت لاحق» Aprés coup(١) ، ومن ثم يحاول تحديد واقعية مايذكره المريض من أحداث ووقائع تاريخية خاصة بماضيه . هذا .. وقد اكتشف فرويد مكانية

(١١) Aprés coup : مصطلح استخدمه فرويد باللغة الفرنسية ؛ ليشير به إلي أن الصدمات مثل الإغواء الجنسي وغيره إنما تتطلب فترة زمنية، أو تطويراً نفسياً حتي تتحول إلي أعراض في وقت لاحق . كما استخدمه بالألمانية Nachtzäglichkeit .

وزمانية ونسقاً فريداً فى الجهاز النفسى ، أطلق عليه اسم «الواقع النفسى Psychic Reality إشارة إلى واقع فريد - تخييلاتى - فكرى - مرغوب ذاتى - لاواقعى (مادى) - هلوسى - داخلى وخاص بالجهاز النفسى يتعارض فى صميمه مع الواقع الخارجى - الشائع - العام بين الناس - المادى - الموضوعى» (جانين بوجيه ١٩٩٥ .R. F. P (*) ص٢٥١) .

وبناء على ذلك فإن المحللين قد اعتادوا الإشارة إلى المشاعر والوجدانات والتفكير ، على أنها تنتمى إلى الواقع الداخلى ، الذى يتطابق مع الواقع النفسى : الذى يمتلك زمانية ومكانية داخل النفس ،على العكس من الواقع الخارجى ، الذى يوجد فى مكان آخر ، يمكن الإمساك به ؛ إذ يتفق عليه عدد كبير من الناس .

والواقع النفسى إذاً إنما هو بناء أو إعادة بناء بناءً جديداً فريداً ، قابلاً لأن يدلل عليه Signifié ، وقد اعتبر فرويد أن للواقع النفسى أهمية تفوق أهمية الأحداث الواقعية الموضوعية فى حالة الأعصبة : فالعصابى يتعامل مع واقعه النفسى بالجدية نفسها التى يتعامل بها الأسوياء مع الواقعية الموضوعية .

وكأن شكيسبير قد أصاب الحقيقة حينما عبر عن هذه الفكرة على لسان ماكبث فى مسرحيته الشهيرة ، التى تحمل اسم البطل ماكبث : من «أن مخاوفى الحالية لهى أقل شدة من التخيلات المرعبة» ، "Present fears are less than horrible imaginings"

(*) .R. F. P إشارة إلي الجملة الفرنسية للتحليل النفسي Revue Française de Psychaualyse .

وقد أكد لابلانش وبونتاليس Laplanche, & Pontalis فى قاموسيهما - بإشراف لاجاش - على التوازن بين المعاش والتخييلات الراغبة ؛ ذلك لأن ما يوجد فى نفس الفرد يتسم بالتماسك والصلابة ؛ حتى يمكننا موازنته بالواقع المادى (الطبعة الفرنسية ص٣٩٢) .

إلا أن بعض المحللين النفسيين مثل جانين بوجيه Puget, J. يرون أن عملية التحليل النفسى فى إطار ديالكيتك الطرح وتضاد الطرح تضعنا أمام منظومة أخرى ؛ إذ إن مايعبر عنه المريض من وقائع أحداث صدمية ذات طابع جسدى أو أسرى أو اجتماعى أو ثقافى ، ومايعبر عنه على أنه ماضيه كما يعيشه هنا والآن - فى حضور المحلل - هذا المحلل الذى يعدل من المجال ، ويفرض ختمه الخاص على المحيط العلاجى فى شكل تحيز للغة بعينها ، وتفكير محدد ينتمى إلى مجموعة معارفه وقيمه وأفكاره النظرية التى يعتنقها ، وكذا الفنيات التى يستخدمها. ومن ثم نجد أمامنا واقعين نفسيين داخل حجرة العلاج : الواقع الفرنسى للمريض ، وذلك الخاص بالمحلل ، وهكذا يتفاعلان لينتج عنهما مايسمى بالواقع بين الذاتى Réalité intersubjective .

وترى المحللة أن الواقع النفسى إنما يعد بناءً جديداً فريداً ، يمكن الاستدلال عليه ، من حيث إن العمل (العلاجى) ينتج عنه تبادل بين فردين ، ومن ثم يندرج تحت مايمكن تسميته تمثل - علائقى Representation-lien ينتمى إلى نفسية بعينها ، ويكون جزءاً مما أطلق عليه أندريج جرين Green A. «اختلاف أنساق التمثل» ، أما فاعليته فتنشأ عن التبادل .

ويشير إلى تعاضد نسق أشارى شفرى ، قائم على أساس من التعينات الذاتية المتبادلة ، وكذلك على اختفاء المعنى ثم التعارض، ولتعرف الاختلافات وبذلك تعد نتاجاً تركيبياً فريداً يسم كل علاقة على حدة ، بحيث يوجد ميلاً وثباتاً فى العلاقة والعكس غياب الثبات .

وهذه الخصوصية تسم كل علاقة تحليلية ، وترى بوجيه أن الأنا الآخر (الذى تشير به إلى المعنى الاجتماعى) ، إنما تشير إلى الفرد داخل مجموعة من الأفراد فى مجتمع ما ، وهى تضفى له أهمية؛ إذ تعتبره أمراً أساسياً فى تعرف الوظيفية النفسية والتمثلات الموجودة فى صميم الموضوع ؛ فالموضوعات تتدخل فى تشييد المساحة الجسدية والعلاقات بالموضوعات وهى التى تشيد المكانية الأسرية ، كما تسهم فى بناء المكانية الاجتماعية (الوظائف والقوانين التشريعية) والثقافية من قيم ومثل أخلاقية.

وهى ترى أن مايكمن فى صميم القطبية (الأنا / الآخر) القيم الخاصة بالصواب والخطأ بالمعنى الأخلاقى - الأيديولوجى «فالأنا الأعلى الجماعى قد طور أفكاره وفرض مقتضياته ، ومن بين هذه الأخيرة تكمن تلك التى تسم علاقات الأفراد فيما بينهم ، ويمكن تلخيصها فى مسمى عام : «الأخلاقيات» كما يذهب فرويد عام ١٩٣٠ .

وهكذا .. فإن المحللة تضفى معنى اجتماعيّاً ثقافيّاً على العلاقة التحليلية ، مشيرة إلى أن التحليل النفسى لايمكنه الابتعاد عن الواقع الاجتماعى والجو الثقافى ، الذى يعيشه كل من المحلل والمريض ، والذى يحدد بدوره تمثلاتهما النفسية .

الواقع بين الصدمة والتاريخ :

اعتقد فرويد أن الإغواء الجنسي في الطفولة يعد بمثابة الصدمة ، التي تتطور في «وقت لاحق» Aprés coup إلى أعراض ، إلا أنه اكتشف فيما بعد أن مناظر الإغواء التي يسردها المرضى لم تكن إلا خلقاً تخييلياً خالصاً .

وانتهى في كتابة «موسى والتوحيد» إلى أن انطباعات الطفولة لاتتخذ شكل الصدمة ، إلا بناء على عوامل كمية ، تتسم بطبيعة جنسية وعدوانية ، كما قد تنتمي إلى الجروح النرجسية . وهكذا .. فإن العصاب يتبع الأحداث التالية : «صدمة باكرة ثم دفاع ثم كمون ثم بزوغ في شكل غرض عصابي ورجوع جزئي لما هو مكبوت» .

وفي هذا الصدد ، نشر فيدرمان Viderman كتاباً بعنوان «بناء المكان التحليلي» عام ١٩٧٠ (١) ، يطرح فيه الأطروحات الأربع التالية :

أولها : ظل فرويد متردداً – رغم تخليه عن نظرية الإغواء – فيما بين البحث عن الأحداث الأولية ، والتي يمكننا تحديد تاريخها والمكبوتة، والتي يمكن إرجاع الأعراض إليها .

ثانيها : استحالة معرفة الأحداث الواقعية بسبب الكبت الأولي Originaire ومن ثم تصبح كل محاولة لتشييد تاريخ حقيقي بمثابة الأسطورة .

(١) Viderman .

ثالثها : من الضرورى على المحلل اختراع هذه المصادر ، التى يستحيل معرفتها .

ويرى فيدرمان بصدد رجل الذئاب أن فرويد قد أعاد بناء منظر تاريخى فى هذه الحالة على نحو احتمالى (افتراضى) ، يتماشى تماماً عن العناصر التاريخية ، فيما يتعلق بتغذية المريض بحيث أعطى تماسكاً للتخييلات المتأخرة ؛ كى تنضم إلى البناء الخاص بالتخييلات الأولية.

وهذه الضرورة لاختراع المصادر ، تبدو واضحة بالمثل فى حالة ليوناردو ، حينما أشار فرويد إلى ذكرى لليوناردو هو لما يزل فى مهده : «حينما جاء النسر وفتح فمى بمنقاره وضربنى عدة مرات بمنقاره فيما بين شفتى» . وانطلق فرويد بناء على هذه الذكرى إلى تحليل نفسى عبقرى، مؤسس على عناصر أسطورية، أحالنا فيها إلى Mut .. هذا الإلـة الذى عبده الفراعنة ، ويحمل رأس النسر .

وبالمثل اعتقد الإغريق والرومان فى أن النسر أنثى ، وأن الريح هى التى تخصبها ، وينتقل بنا فرويد من Mut إلى الكلمة الألمانية Mutter أى أمر مفسر لتخييل ليونارد ، وعلى أنه ابن لأم ليس لها رجل ، وأن الأم النسر تحمل سمة جنسية مثلية ، وأنه قد تعين ذاتياً بهذه الأم .

ويرى فيدرمان أن هذا التفسير الفرويدى لايقوم على أساس من الواقع ، رغم أنه تفسير عبقرى ، لفيدرمان إذ يقع فرويد فى إضافة الترجمة ، فالنص الأصلى يشير إلى الحدأة وليس النسر .

ويرى فيدرمان أن نقطة الضعف فى تفسيرات فرويد لاتكمن فى

خطأ الترجمة ، وإنما تكمن فى رغبته فى تشييد التخييل على عناصر واقعية.

ويرى فيدرمان أن فرويد لم يكن ليرى نسراً بدلاً من الحدأة ، إذا لم يكن قد حلم لليونارد بحقيقة لاشعورية متخلية (vérité inconsciente imaginaire) .

ويمضى فيدرمان قائلاً : «لايهمنا إذا كان ليوناردو قد (حلم أم تذكر) وبالمثل لايهمنا إذا كان الأمر يتعلق (بنسر أم حدأة) ، وإن مايهمنا هو أن المحلل لم يلق بالاً للواقع ، وإنما جمع وخلق ماده من أجل تشييد بناء متماسكا، ينتج عنه تخييل موجوداًمن قبل فى لاشعور الفرد ، وإنما تولد الحقيقة أثناء النطق بها» .

رابعها : ينجم عن النقد السابق لفيدرمان والذى ينتمى للواقع : من حيث إن الواقع الخاص بالأحداث لا أهمية له من حيث أنه من المستحيل الوصول إليه ، وينبغى اختراعه أو خلقه ، ويصيغ فيدرمان أطروحته الرابعة فيما يلى :

«فيما بين المشهد الأول المعاش أو المتخيل والمحتفظ به فى اللاشعور، وبين حلم الذئب .. لايوجد أى تشابه فيما بينهما ، سوى قول المحلل – وهو قول ينبغى تصديقه وإلا فلنرفضه . ويمضى قائلاً : «إن التاريخ الذى يستعيده المريض إذا لم يكن حقيقياً ، فهو ليس بالأمر المهم، ويكفينا أنه مشابهة للحقيقة semblable (vari) (*) .

(*) يلعب بالكلمة الفرنسية يعني المقطع الأول منها الحقيقة ، والمقطع الثاني يعني القرين أو الشبيه ، ومعني الكلمة في اللغة الفرنسية : استلاحه أو مشابهة للحقيقة .

ويبدو مما قدمه فيرمان أعلاه أن المحلل النفسى تتسلط عليه فكرة البحث عن المصادر ، إلا أن هذه المصادر يستحيل الوصول إليها ، وأن عليه اختراعها كما عليه أن يبينها حتى يوجدها . ونرى كيف ابتعدنا هنا عما أعلنه فرويد مناالبناء أثناء التحليل Construction en anlayse ، وأهمية الوقائع التى يتم إنكارها ، وبالمثل أهمية «الحقيقة التاريخية» .

إلا أنه بعد مرور حوالى خمسة وعشرين عاماً على كتاب فيدرمان، فإن المناقشات حول زيف التاريخ قد أجبرت عديداً من المحللين على مناقشتها وفى هذا الصدديقول باش Pasche :

«يجابه الإنسان فى بداية حياته الواقع ، وهو لايحمله هنا أو هناك، بعدأن يكون قد اخترعه من أجل أن يستعيده ولكنه يجذبه ويزوده ويمنعه، ويرهبه ، وهذا لايستجيب على ما اختلقه ، وإنما أيضاً على ماهو حقيقى. وبالنسبة لباسن ، فإن إجبار التكرار لاينتمى إلى الدفعات والرغبات والتخيلات الأولية فحسب ، وإنما ينتمى أيضاً إلى الدفعات والرغبات ، ويرى Marc Bloch مارك بلوك : «أن شخصاً ما أو حدثاً ما أو أى جانب من جوانب ماضى الإنسان لايصبح تاريخاً سوياً لأن المؤرخ قد وصفه بذلك ، وحكم عليه بأنه خليق بأن يكون ذكرى ؛ لأنه يبدو مهمًا أو خصباً أو شيقاً أو نافعاً أو نشطاً ...» وهكذا يبدو التاريخ ، وكأنه رأب للصدع وخلقاً فى الآن نفسه ، كما يقول مارو Marrou .

فيعد التاريخ بمثابة نتاج لجهد بمعنى الخلق ، يقوم به المؤرخ ؛ كى يوحد فيما بين الماضى الذى يجهله والحاضر الذى يملكه .

ويتضح فيما سبق التشابه الكبير فيما بين المؤرخ والمحلل النفسى

ونرجع إلى كتابات فرويد عن الهذاء فى البناء التحليلى Construction en analysé ، فيقول: «إن مايهمنا فى هذا الأمر هو تأكيد أن الجنون لايتم تبعاً لمنهج فحسب ، وإنما يتضمن أيضاً جزءاً من الواقع التاريخى ، والعمل التحليلى يتكون من التخلص من الجزء ومن تشوهاته وضغوطه على الواقع الموضوعى ، ويقودنا ذلك ثانية إلى الماضى الذى تنتمى إليه ، وبالمثل.. فإن أثر بنائنا (تحليلنا) لايرجع إلى حقيقة أننا نرجع إلى جزء منسى أو مفقود من التاريخ المعاش ، وإنما إلى أن القوة المقنعة للهذاء تحل محل الواقع الذى استبعد» .

إلا أن فيدرمان بعد أن يتم النقد الذى وجه إلى كتابه ، نشر كتاباً ثانياً رجع فيه مرة أخرى إلى مشكلة التأريخ بعنوان السماوى والأرضى ..

ويقول كروسى Croce : «إن الوقائع لاتوجد وإنما النفس كلمة esprit تتعدد معانيها فى الفرنسية ، فتعنى الروح وتعنى النفس وتعنى العقل ، ويحدد السياق المعنى الأقرب إلى الصحة هى التى تفكر وتشيد الأحداث والوقائع» .

وبالمثل يقول بولفين Veyne P. : «إنه لاتوجد موضوعات طبيعية فى التاريخ .. وإنما موضوع التاريخ هو ماتخلقه أو مايمكن استقطاعه، بناء على عديد من المحكات التى تصدق كل الأشياء» .

وهذا ماسمح لفيدرمان بأن يقرر «أن المتخيل هو الذى يسمح لنا بسد الفراغات وملء الفجوات وتخطى الجسور ، وتحويل التاريخ غير المستمر (المتقطع) إلى حكاية متماسكة فى تسلسل ، إلا أن الروح هى التى تشيد هذا التماسك» .

وهكذا .. فإن المؤرخين – مثلهم مثل المحللين النفسيين – عليهم إعلان سقوط وهم «الفلسفة الوضعية» (*) ، ومن ثم عليهم اعتبار أن البناء أو إعادة البناء فى حالة التحليل النفسى لايكون إلا مجرد هذاء ، وأن بناء التاريخ أمر ذاتى بحت . ونرى فيدرمان يتحول على نحو مثير للدهشة بالقياس إلى موقفه السابق «لايلق للواقع بالاً إذ يحاول فى كتابة «السماوى والأرضى» أن يجيب عن هذا التساؤل فيما يلى :

«لايسعنى فى إعادة البناء لمرضاى ، سوى أن ارتضى اختيار سلسلة من الأحداث بدلاً من سلسلة أخرى . وينبغى أن يكون الإغواء – لسبب تاريخى أو آخر – قد حدث فى لحظة يمكن تحديدها تاريخياً ، ويمكن الاستدلال عليها بواسطة الذاكرة إذا كان ذلك ممكناً أو عن طريق إعادة البناء إذا استحالت الذاكرة استحضارها .

وينبغى بالنسبة للخصاء أو المشهد الأول فى إطار اعتبارهما أحداثاً واقعية يضاف إليها الآثار ، التى أدت إلى زلزلة البناء النفسى وتحمل الفرد لها فترة زمنية طويلة ، واعتبار أنها حدثت بالفعل حتى يمكننا أن نستعيدها ، وأن نعيد بناءها ونضعها فى فجوات الذاكرة ؛ كى نرمم ونربط بينها وبين الأعراض التى حلت محل الذكريات ، وهكذا .. فإن الترتيب الذى انهار يشيد من جديد .»

الخلاصة تكمن فى «أن المجال التاريخى يتسم بأنه غير دقيق وغير

(*) فلسفة – أوجست كانت – تقصر عنايتها علي الظواهر والوقائع اليقينية ، مهملة كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة . وكل فلسفة أخري تعتمد علي معرفة الوقائع وعلي التجربة العملية كفلسفة سبنسر وستيوارت ميل ... إلخ .

اتفـاقى ، ورغم ذلك فـإننا نـطبـقـه ، ونجـدنا مـجـبـرين إذا أردنا أن نكون مؤيدين – أن نقول بأن هناك مصادفة فيما بين التاريخ الخاص بالمريض وما حدث بالفعل . ورغم ذلك علينا أن نقرر بأن التحليل لايعدو أن يكون مجرد إعادة بناء للتاريخ الواقعى للفرد ، ورغم ذلك فإن هذا الجانب له أهميته ؛ فالمحلل على العكس يهتم بفهم كيف تعزل أو تضاف أو تطعم الأحداث بالتخيلات وبميكانيزمات الدفاع ، وبالمثل بالأعراض .

وفى هذا الصدد .. فإن فيدرمان يستخدم استعارة اللؤلؤة ، التى تشكل ابتداء من حبة أو ذرة الرمال ، تلك التى توازى فى التحليل النفسى الأحداث أو الآثار الذكروية للأحداث ، والتى تغزل التخييلات ابتداء منها ثم تتطور مثلما تتشكل اللؤلوة من حول حبة الرمال (أى الأحداث الواقعية) . ويتفق كلود جانين Janin, C. مع فيدرمان على هذه الفكرة ، معلقاً بأنه قد فتح الباب على مصراعيه «للعمل فى مجال إبستمولوجيا التحليل النفسى» .

ونعرف أن حبة الرمال التى تتحول إلى لؤلؤة هو مستقبل أقل الأشياء تحديداً : فالعالم يمتلئ بالشواطئ الرملية ، أكثر مما يمتلئ باللؤلؤ، ويحق لنا إذا كان الأمر كذلك أن نتساءل عما إذا كانت هذه الملحوظة تنسحب أيضاً على تاريخ البشرية ، وكم من تسجيل أو قيد يماثل حبة الرمال ؟

وعلى أية حال .. فإن حبة الرمال ؛ أى الأحداث أو آثارها الذكروية لايمكن أن تكون عاطلة عن الأهمية أو المعنى ؛ لأنها بالضرورة قابلة للترميز Symbolisable ، كما أن حبة الرمال الخاصة بالأحداث لها دور

حيوى ، بالقياس إلى المحلل ؛ إذ يمكن أن نطلق عليه اسم «نواة Noyau Traumatique»، كما تذهب جانين .

ذلك أن استعارة فيدرمان «اللؤلؤة «التى تتشكل ابتداء من ذرة الرمال» والتى يترتب عليها فكرة نواة الصدمة تقترب من فكرة فرويد أن الموضوع يولد فى الكراهية ؛ ذلك أن تشييد الموضوع الداخلى يتشكل ابتداءً من غياب الموضوع الواقعى ، ومن ثم المحبط .

هذا .. وقد التقط جان لابلانش Laplanche, Jean الخيط ابتداء من جملة فرويد السابقة ، ونسج فى كتابه Nouveaux Fondements Pour la psychanalyse أسساً جديدة للتحليل النفسى» ، بفكرة مؤداها أنه من حيث إن الأم تعنى أو تهتم فى الأحوال العادى بوليدها .. فإنها تبعث له برسائل مفعمة بالمعنى الجنسى ، الذى يجهل معناه «الأمر الذى نعتبره إغواءً جنسيّاً بواسطته يزرع» الجنس فى النفس الإنسانية ، وهنا نجدنا – مرة أخرى – أمام فكرة أنه ابتداء من «الواقعى» ؛ أى إننا نبدأ من مجموع الحاجات الأساسية الأولية ، تلك التى تزرع الجسد النفسى الغريب ، أو باختصار .. فإن الصدمات الأولية تتميز بأنها «طيبة أو ذات أثر طيب وتتطور فيما بعد .

وهذان الشكلان من النوى الصدمية فى الأنا يمكن إدراجهما، تحت عنوان «المبالغة أو الزيادة» زيادة فى غياب الأم وزيادة فى وجودها، والاثنان لهما الأثر النفسى نفسه : الفيض أو الإغراق فى الاستثارة الداخلية ، والتى ترتبط لدى الفرد بسبل (التشييد) التخييلاتى Concrétions fantasmatique .

هذا .. وقد طور جانين ، ابتداء من الملحوظة السابقة ، فكرة «منطقية الصدمة» حول ما أسماه «البارد والساخن» "Le cteahd et le foid" ، وقد أتته الفكرة من حالتين ، قام بعلاجهما فى الوقت نفسه: إحداهما عانت من حياة مليئة بالاستثارة النفسية المبالغ فيها ؛ مما أدى بها إلى تكوين اضطراب فى الشخصية ذى الطابع الدون جوانى وبدت وكأنها هستيرية .. إلا أن تاريخ الحالة أشار إلى أن أمها كانت تعانى من الرهاب على نحو عنيف ؛ بحيث لم تعتن بالمريضة العناية الجسدية الكافية ، التى يتطلبها فى العادة الطفل الصغير ، وقد تفادت أمها بشكل رهابى لمس المناطق الشبقية الأمر الذى أثر سلبياً بحيث خبرته المريضة على أنها استثارة عنيفة وخطرة .

أما المريضة الثانية .. فقد كانت محرومة على المستوى الإكلينيكى، وقد استعادت – أثناء تحليلها – خبرة إغواء جنسى ، إلا أنها عاشت هذه الخبرة بوصفها نصراً هوسيّاً ، ومن ثم فإن الاكتئاب الذى عانت منه فى سن البلوغ يمكن اعتباره – جزئيّاً – غياب قدرتها على الحداد أو الحزن على وهم القدرة المطلقة الطفلية .

ويقترح جانين ابتداء من هاتين الحالتين استعارة سكوفسيولوجية ، قد تفسر تعقيد المواقف الصدمية المختلفة . والواقع .. فإن الاستعارة «الوقاية من الاستثارة» ، إنما تتحطم فى حالة الصدمات ؛ خاصة الصدمات التى تنتمى إلى الغلاف الواقى للجسد ؛ أى الجلد بتعبير أنزيو Anzieu إ؛ ذ يتكون الجلد من مستقبلات طرفية ، لها صفة القدرة على التفرقة فيما بين البارد والساخن ؛ لأنه إذا عصبنا أعين فرد ما وعرضنا

جلده لسخونة شديدة أو برودة شديدة .. فإن هذا التعرض المبالغ فيه أو التعرض الضئيل يعيشهما الفرد على النحو نفسه أى بوصفها زيادة فى الاستثارة .

وهكذا .. فإنهما يترجمان على النحو نفسه ويسجلان فى السياق التاريخى على نحو مختلف ، وعلينا أن نفرق جيداً أثناء إعادة البناء فيما حدث تاريخياً بالنسبة للمريض ، وماحوته المبالغة فى الاستثارة مفهوم أو غير مفهوم بالنسبة للأنا .

وإذا كان المحلل سوف يعيد بناء هذه المناظر ، فإنه يقوم بدور المؤرخ الذى يسمح بوصف البداية من آثار لما تزل فى متناول الفرد ، أما مايبقى خارج هذه العملية .. فإنه يظل غير مفهوم . وبهذا المعنى يمكننا القيام بما نصح به Michelet ميشليه : «علينا استنطاق الصمت من هذه اللحظات الرهيبة ا، لتى صممت ، وهى على وجه التحديد أكثر اللحظات تراجيدية» .

وإذا أردنا وصف الأشكال الأساسية من الصدمات النفسية ، فيمكننا وصفها على أنها عدم تحديد المعيش النفسى الداخلى Non qualification des vécues؛ إذ تتعايش جنباً مع هذه الصدمات البدائية Psychigues internes . إلى جنب مع الأشكال الأخرى من الصدمات . (ص١٢٣ المرجع السابق) .

«وأحسب أن علينا من أجل وصف نوع آخر من الصدمات أن نخرج على مفهوم «الموضوعات والظاهرات المعبرية» الخاص بوينيكوت ؛ إذ يرى أنه : «يمكننا القول بالنسبة للموضوع المعبرى أننا نتفق تماماً نحن

والوليد فيما بيننا (على الموضوع المعبرى) ، حتى أننا لانطرح التساول بشأنه: «هذا الشيء هل تدركه أم يقدم لك من الخارج» ، وأن مايهمنا هنا هو أنه لاتوجد إجابة عن هذا التساول ، كما أن السؤال ذاته لم يصغ . كما وأن ماقد طرحه وينكوت بصدد الموضوع المعبرى .. فإن جانين يعتقد أنه ينسحب على ماتهتم به فى نظريتناعن «الواقع» : حتى ولو كنا نحاول - دائماً - إقامة تفرقة فيما بين التخييل والواقع .

إن الموضوع الذى يستثار فى التحليل النفسى يقع على الحدود فيما بين الداخل والخارج ، ويوجد فيما بين المحلل والمريض ميثاق ضمنى يكون موضوع الحديث ، «فيما بين اثنين» أعنى أنه فى الوقت نفسه يوجد:

أولاً : موضوع واقعى ، يعدل بواسطة فعاليات العمل النفسى ، فيما يتضمن إسقاطه واستدماجه وتمثله فى الأحلام وفى التخييلات .

ثانياً : موضوع نفسى يشيد بفضل دعم العوامل الواقعية للموضوع وللبيئة. ومن ثم .. فإن علاقتنا بالواقع تشيد ابتداء من هذه العوامل المزدوجة التى يتسم بها الواقع ، ويقترح جانين اسم «علاقة الواقع» ، وهى تقترب فى طبيعتها من الطبيعة المركبة ، التى اقترحها فيدرمان فى استعارته الشهيرة «اللؤلؤة» .

ويرى جانين أن أحد العوامل الأساسية للصدمة يتمثل فى اللحظة، التى يجد الفرد فيها نفسه وجهاً لوجه أمام حدث (واقعى) ، يتطابق مع التخييل على سبيل المثال ؛ حينما يجد الطفل نفسه وجهاً لوجه فى موقف إغواء جسنى واقعى ، يتطابق فى الواقع مع تخييله البدائى Fantasme Originaire ، أو حينما يعيش غياب شخص قريب ؛ تحقيقاً لتخيلاته

العدوانية اللاشعورية تجاه هذا الشخص .

وهذه المواجهات الأليمة (بتعبير أندريه جرين) فميا بين الواقع والتخييلات .. فإن المكانية النفسية والمكانية الخارجية تتواصلان على نحو يؤدى إلى أن يحقق دور الجهاز التنفسى فى احتواء العالم الداخلى ، وهو مايطلق عليه جانين «انهيار المستوى الداخلى» .

وفى مثل هذه الظروف ، يخفق الفرد فى تحديد مصدر الاستثارة (من الخارج أم من الداخل) ؛ الأمر الذى يتحقق فى كل موقف صدمى ، ونأتنس فى هذا الصدد بقول فرويد إن الصدمة بمثابة خبرة غياب العضو للأنا ، فى مواجهة الاستثارة ، سواء كانت داخلية أم خارجية» (الأمر الذى يبدو حقيقاً بكل وضوح ، وينطبق على كل صدمة) .

وحينما تسود حالة من الانهيار للمستوى الداخلى ، فإن الفرد يصبح غير قادر على «اختبار الواقع» ، الذى وصفه فرويد عام ١٩١٧ ، ويشير إليه كلما تعرض إلى حالة الشدة ؛ فالكائن فى حالة الشدة يقوم بالتوجه البدائى نحو العالم مفرقاً - بفضل مدركاته - فيما بين الداخل والخارج ، تبعاً لعلاقتها بنشاطه العضلى .

والشيء المدرك الذى يؤدى النشاط إلى اختفائه يتعرفه بوصفه خارجياً .. بوصفه واقعياً ، إما إذا لم يغير النشاط شيئاً ، فإنه يأتى من داخل الجسد بما هو كذلك ، ومن ثم .. فإنه غير واقعى ، وهو مايعنى فى الوقت نفسه الانغلاق على الذات ، وهكذا .. فإن حالات الانهيار (النفسى) تستثير حالات فقدان الشعور بالواقع ، ومن ثم تستحق أن يطلق عليها المصطلح الفرويدى «الغرابة المقلقة» In guietante étrangeté .

«وتشير هذه الحالات إلى النكوص إلى تلك المراحل ، التى لم يمكن الأنا فيها أن يستطيع التحديد القاطع فيما بين العالم الخارجى وبين الداخل» . وتشير حالات الانهيار البنائى topigue على المستوى الإكلينيكى إلى ظاهرات فقدان الإحساس بالأنية depersonalis ation .

أما حالات الانهيار البنائى السوى قصيرة المدى .. فإنما ينتج عنها مواجهة فيما بين التخييل والحدث الواقعى، إلا أن الأثر الخاص بُتقويضها يكون شديد الوصف ، وهذه المواقف تعاش بواسطة الفرد على أنها حالات قصيرة من فقدان الشعور بالأنية ؛ الأمر الذى يحدث بسبب استخدام الأنا لميكانيزم الأنشطة ؛ بمعنى فصل أو استبعاد أحد عناصر الواقع ، التى قضت عبريتها détransitionnaliseé، أو بكلمات أخرى يشير إلى الانفصال ، وهنا فإن التخييل والحدث الواقعى يتطابقان فى التقائهما .

وإذا كان لنا أن نعتقد فى صحة ماسبق ، عندها يكون لزاماً علينا أن نوافق Gérard Bayle فى قوله بأن الانشطار له دور وظيفى ؛ إذ نراه فى تنظيمات نفسية ليست منظرة ، بالضرورة وهو يعنى بالنسبة للفرد محاولة لاستعادة الغلاف الذى يغلف نفسيته .

ويعتقد جانين أن قدرتنا على النوم والحلم تمكننا من فض الشحن المشحون به العالم ، على نحو مؤقت؛ الأمر الذى يعد مكسباً بالنسبة للأنا، ويقول إننا نرى من خلال عملنا مرضى، يبدون وكأنهم قد تراجعوا مبتعدين عن العالم الخارجى ، بعبارة أخرى ، فهم قد فضوا الشحن فيه، بينما هم فى الحقيقة فى محاولة لإعادة تشييد الغلاف ، الذى يغلف النفس، والذى تداعى مع الانهيار البنائى ، وهنا يحضرنا وصف Bettelheim

للحالات الذاتوية ، والتى ينسحب فيها الأسرى على ذواتهم .

هذا من جانب ، وعلى جانب الآخر .. نجد مرضى على اتصال مباشر ودائم مع الواقع ، ويتعاملون مع الواقع على نحو متوائم ، ورغم ذلك فإنهم يعانون بالمثل من انهيار بنائى تام ، كما تختزل وظيفتهم النفسية فيما يطلق عليه «التفكير العامل» Penseé Operatoire ، الذى يشبه الانشطار من حيث أنهما يحدثان بغير مساس للتنظيمات البنائية ، مقابل الظروف الدرامية الصارمة التى تفجر الانهيار البنائى .

وأخيراً .. يمكننا فهم «هوس الصدمة» فى علاقته الكلينيكية بالتكرارية فى محاولة للسيطرة على الإثارة المرتبطة بالصدمة الأولى؛ الأمر الذى نراه عادة فى المواقف الصدمية بعامة ، ورغم ذلك فإن شهوة الصدمة تذهب إلى أبعد من محاولة السيطرة ، ويرى جانين أن الفرد يحاول الوصول إلى هدف أكثر عمقاً ؛ أعنى محاولة إعادة الغلاف البنائى الذى تداعى ، كما أن تجديد الاستثارة الصدمية يعيد تحريك مضاد – الشحنة .

والهدف مما سبق هو توكيد القيمة التاريخية للتكوينات الصدمية ، التى نراها لدى المرضى ، وبالتالى توكيد ضرورة تكاملها فى المقابلة التحليلية ، وغزلها فى نسيج التاريخ الكلى للحالة .

ويبدو – والحالة هذه – أن تشييد ماضى الفرد بالنسبة للبعض (المحللين) وتشييد ماضى الجماعة (المؤرخين) ليس غير تمثل للواقع ، والواقع فى الآن نفسه ؛ إذ يعمل البعض ابتداءً من مؤشرات ، وبالنسبة

للمؤرخين فإن هذه المؤشرات لها طبيعة مادية على الدوام ؛ حتى ولو كانت نصاً وحتى ولو كان النص مزيفاً ؛ الأمر الذى لايتحقق للمحللين النفسيين .. فالنص الوحيد المتاح بالنسبة لهم هو الكلام .

ورغم ذلك .. فإن الكلام له نتائجه الملموسة فى شكل سيطرة أيديولوجيا التأريخ فى التحليل النفسى ، وهو مادفع وينكوت لصياغة منفذ لهذه المعضلة ، فيما أسماه عبرية الواقع ، بعد أن كان فرويد قد قرر فى رجل الذئاب – حينما حاول إيجاد مؤشرات على واقعية المشهد البدائى لديه – بأن التحليل المؤسس على العصاب الطفلى ، قد لايعرف غير قطعة من السخف ، أو ربما قد حدثت الأمور بدقة كما وصفتها أعلى» .

فى حين أن البعض الآخر من المحللين يهتم بنظرية التفسير ، ومن بينهم كريستيان دافيد .David. C ، الذى أشار إلى أن عمل التحليل لاينبنى على فك شفرةالآثار ، التى أودعت فى الذاكرة ، وإعادة تركيب وتنظيم وترتيب الآثار التاريخية التى فسدت ، وإنما يعتمد على التفسير بهدف دفع عملية (عجلة) العلاج فى المساحة ، التى تتحدد فيها الوقائع التى لم تحدث فى الماضى ، وإنما اكتشف أثناء الموقف التحليلى بواسطة العمل التحليلى.

وهكذا .. فإن الأذن الخاصة بالمحلل (الثالثة) لاتعد بمثابة العضو الفيزيقى ، وإنما تعد عضو تحول . وتتعارض وجهة النظر السابقة مع نظريات أخرى ، ترى أن الواقع يقوم نفسه دفعة واحدة فى العلاج ، ويتمثل فى دفعات غريزية وتخييلات وموضوعات وراثية ، ويمكننا أن نقرر بناء على ماسبق وجود ثلاثة مفاهيم للواقع النفسى :

أولاً : واقع مفقود أو خبيئ يمكن تشييده ، ابتداءً من مؤشرات أو علامات أعيد العثور عليها ، أو شيدت بناء على اقتراحات جديدة .

ثانياً : واقع خلق (عثر عليه) .

ثالثاً : واقع يقدم نفسه دفعة واحدة ، ويكشف عن نفسه على نحو مفهوم مفاجئ .

ويبدو وكأن المعنيين الأولين للواقع النفسى ، ينتميان إلى فكرة الواقع الذى يزيف معنى العلمية ، أما المعنى الثالث فيتسم بالوضعية . ويتبين مما سبق أن مفهوم «الواقع النفسى» يعد مفهوماً جوهرياً فى تراث التحليل النفسى ، وجزءاً لايتجزأ من العمل التحليلى ، بحيث يمكننا اعتباره أمراً مسلماً به ، بل يحمل سمة ماهو عيانى concréte ، ودونه يتداعى العمل التحليلى حتى أن لوجين Le Guen يعتبره على حد تعبيره «خبزنا اليومى» .

هذا .. وقد اعتبر فرويد أن للواقع النفسى دوراً مهيمناً ساحقاً فى عالم الأعصبه ، بل له دور مهيمن فى العالم النفسى وببساطة فى العالم . وهكذا يبدو وكأن مفهوم الواقع النفسى له معنى أعمق من ذاته ؛ إذ إنه يقلب حقائق المعرفة ويلقى بآثاره على آفاق أبعد من التحليل النفسى .

ويعرف المحللون جد المعرفة أهمية ووطأة التخييل ؛ فالواقع النفسى يحل محل الواقع المادى ، ويحمل نتائج مادية يمكن لمسها ورؤيتها؛ فللواقع النفسى وجود واقعى وفعال Reélle et aggissan (المرجع السابق) [(١)] .

---

(1) Le Guen : Le Principe de Realité Psychigue Revue Trançaise de Psychonolyse Tome Lix famvier 1995 P.U.F. Paris.

وإذا ماكان فرويد قد أكد دائماً أن التحليل النفسي ماهو إلا علم نفس، وإذا كان علماء النفس قد أسسوا الواقع على قواعد فيزيقية ، مفضلين ترك التأمل حول الشك في الحقيقة للفلاسفة ، فلمَ لَمْ يفعل فرويد الشيء نفسه؟

والإجابة ببساطة لأن هدفه لم يكن الشيء نفسه.. فقد أضفى خصوصية جديدة تماماً على كل ماهو لاشعوري ، وأبدع مكاناً جديداً في تاريخ المعرفة ، وقلب كل المعطيات السابقة ، وكان عليه أن يبدأ بتعريف المعتاد في كل المعارف الأخرى أعني «الواقع» .. ولذلك كان عليه صياغة واقع جد خاص .

٤

الرواية فى التحليل النفسى
اعتبارات ابستمولوجية

الرواية في التحليل النفسي
اعتبارات ابستمولوجية

استحدث «فرويد بإرسائه للعلاج بالكلام» "Talking. cure" وبابتداعه لمنهج «التداعى الطليق» "Free Association" وبتشجيعه لمرضاه على استعادة ذكرياتهم القديمة ، نوعاً من الرواية أو الحكاية فى التحليل النفسى ؛ إذ تنتظم حياة المريض بجلها فى «الكلام» ومن بينها أحلام الليل والعلاقات اليومية فى حياة المريض وذكرياته .. إلخ .

إلا أن ماتتضمنه الرواية أعلى محتواها أصبح مجالاً للنقد وللتساؤلات من قبل المحللين المحدثين والفلاسفة ، فقد تناول البعض مصداقية الأحداث التى يحكيها المريض، بينما تناول البعض الآخر القيمة العلاجية للرواية .

وإذا ماطرحنا التساؤل حول القيمة الحقيقية للرواية .. فلابد أن نرجع إلى الأنموذج الذى طوره «بول ريكور» "Paul Ricoeur" (١) فى كتابه «الزمن والرواية» Temps et Récit إذ يقيم الرواية على ثلاثة مستويات، تعتمد على ما أسماه "Mimesis" أو تمثل الفعل .

المستوى الأول : ظروف الرواية : أى الشكل الروائى الذى يستمد جذوره من الفهم المسبق للعالم الخاص بالفعل، ويفترض وجود ألفة بين

(1) Paul Rïcoeur : Temps et Récit. Seuil 1985.

الأفكار والسيمانطيقا [١] الخاصة بالفعل : العوامل والأهداف والوسائل والحوافز والنجاح والفشل والتعاون والصراع والظروف المحيطة .

المستوى الثانى : المظهر الخارجى للرواية : تكوين الرواية فى شكل سيناريو درامى يحمل بداية وأحداثاً متتابعة ثم النهاية.. هذا الذى أطلق عليه «ريكور» اسم فعل الحبكة، والذى يقتضى تنسيقاً للوقائع بحيث تتخذ معنى .

المستوى الثالث : إعادة تصوير الماضى، ويعنى ذلك التتابع الذى يستحيل تحقيقه، بل يظل على الدوام قابلاً لإعادة التفسير وإعادة التنظيم .

ويمكننا تناول فهم الرواية – فى إطار التحليل النفسى – من وجهة نظر، تقودنا فى النهاية إلى فهم الأثر العلاجى للرواية من وجهتى نظر : وظيفة الفعل ووظيفة المعنى .

ولاشك أن إحدى النتائج المهمة للرواية هى إعادة تأسيس الفرد فى الزمانية . هذا من جانب ومن جانب آخر تحويل الموقف من موقف عجز أمام أحداث الحياة إلى موقف إيجابى يكمن فى إخراج الرواية "Mettre en récit" ؛ أى إخراج الأحداث فى رواية . وهكذا يتحول الفرد بإخراج الرواية من العجز التام إلى موقف يضفى فيه المعنى، أو كما يقول «ريكور»: إن حبكة الرواية لاتفصح عن نحو اللغة بقدر ماتفصح عن الوجود فى التاريخ (بالمعنى الوجودى)، ومن ثم تتكشف المنفعة فى فعل الكلام .

---

(١) سيما نطيقا : علم الدلالة والمعني .

ويبرهن على القيمة النفعية فى إخراج الرواية فى حقيقة أنها تسمح بالترميز "Symbolization" ، كما تسمح بتحويل السلبية إلى إيجابية .

ولاجدال أننا نجد أنفسنا فى التحليل النفسى أمام «الفعل» ، فالقول بمثابة الفعل ، أو كما يقول أوستين "Austin" أنه يمكننا أن نقوم بأشياء بالكلمات ، أو إذا صح التعبير بالعربية «اللعب بالكلام» . ومن ثم يمكننا تصور كل سيناريو طرحى فى ضوء هذه الحقيقة ؛ إذ يلعب المحلل دور «الشاهد» أو المستمع الذى يبدو أحياناً منتبهاً أو لامبالياً فى أحيان أخرى ، وقد يتقمص دور البطل فى الدراما الروائية التى يغزلها المريض .

وتفترض نظرية التحليل النفسى أن إخراج mise en acte فى رواية الحاضر لايتضمن بالضرورة استعادة الصراعات الطفيلية لأول مرة ؛ الأمر الذى يجعلنا نتخطى «الهنا والآن» "hic-et nunc" (الوجودية) ؛ الذى يفترض خطأ أن التحليل النفسى العلاجى مجرد تفاعل بين شخصين ؛ فالمحلل لايتدخل بالتفسير لإضفاء «المعنى» على المستدعيات ، وإنما يتدخل فى رأى المحلل برتراند (١) كى يحرك المريض من كان الممثل إلى مكان المشاهد – المستمع للدراما الخاصة به ، وهذا الابتعاد يسمح له بالاستماع إلى قوله ، وبالمثل يسمح له بالانفتاح على عملية فض الاشتباك مع مايمكن أن نطلق عليه إعادة معينة أو تكرارية لأحداث الماضى .

هذا وأن عمل «فيدرمان» «المعنون» بناء المكان التحليلى» الذى عرضنا له (فى المقال السابق) يدافع فيه الكاتب عن فكرة أن الماضى

(1) Michéle Bertrand : Valeurs et limites du narrative en psychaualyse p.713 R.F.P. 1998 Tome **LXII** P.U.F.

لايستعاد فى الرواية ، وإنما يشيد فى التو واللحظة بواسطة الراوى .

ويرى برتران أنه من الخطأ أن يهتم «فيدرمان» بالتضحية بالتاريخ للبناء ، إذ نجده يطرح فرضاً مهماً ألا وهو أن «الحقائق التخييلاتية» ، التى توجه الرواية لايمكنها أن تتبلور ، إذا لم تكن قد التفت بخبرة منظمة للمعنى؛ الأمر الذى لايبتعد كثيراً عن المعنى الذى طرحه «بول ريكور» إعادة تصوير الماضى "Refiguration du Passé" ... وهكذا ، فإن : «آثار التلاقى بين حقائق الماضى التاريخية كما عاشها الفرد ، والحقائق الجوهرية فى عالمه التخيلاتى مما يخلق تاريخاً خاصاً : فالتفاعل على المحور الأفقى الخاص بالحياة التخييلاتيه يتلاقيان فى نقطة يضيئ لنا الزمانية التاريخية ومايمكن أن تتحول إليه» (فيدرمان ، ص٣٤٢) .

وإذا كان «فيدرمان» يميل إلى اعتبار الرواية بناءً تاريخياً له طابع تخمينى ورغم ذلك فإنه يتقاطع أو يتلاقى مع خبرة معاشة .. فإن الأمر على العكس بالنسبة لـ «سبنس» "Spence" ؛ إذ تختفى كل حقيقة تاريخية، وتصبح الرواية بالنسبة له مجرد «قصة جيدة» "Good story" ، ومن ثم فإن الفاعلية العلاجية إنما تكمن فيما يلى :

(١) الهوية الروائية التى ينتجها المريض عن قصة حياته .

(٢) الشكل الخلاق الذى يربط بناء الرواية والعمل الفنى .

(٣) مايوفره الاستماع «النشط» للمحلل وتحويله بتفسيراته للرواية بحيث تصبح ذات دلالة ، وهكذا ... فإن التفسير «الجيد» يسمح بإلحاق جزءاً منعزلاً للرواية ، ومن ثم تتماسك الرواية ، وتصبح متناسقة مفهومة وتتحول إلى جشتالط له دلالة .

ويمكن توجيه النقد التالى للصياغات النظرية السابقة للرواية «فسبنس» يفضل تماسك الرواية وتناسقها على «الفكر» .

ومن المؤكد أن التماسك يحدث أثراً مخففاً للمريض .. إلا أنه لايمكنه إحداث أثر «علاجى» ، والأهم من ذلك أن العمليات الدفاعية لايمكنها أن تترك ثغرة للوصول إلى العمليات الأولية ، شيد «المعنى» كلما انغلق نسق العمليات الأولية على نفسه .

هذا بالإضافة إلى أن الاستماع النشط للمحلل يتخذ – والحالة هذه – سمة الإيحاء ، وبذلك يتحول «التفسير» إلى «فهم» .

وأخيراً .. فإن تحويل الموقف العلاجى فى التحليل النفسى إلى «علم نفسى كيانين» (١) "Two Body Psycholgy" ، إنما يفقد التحليل النفسى مكانته المتميزة وفاعليته : أعنى إضافة مفهوم ثالث هو «الطبيعة المتخيلة للتفاعل» فتفسير مايحدث على المستوى المتخيل إنما يسمح بالتغيير .

ويرى لابلانش فى هذا الصدد فى مقال بعنوان «الحكاية والتأويل» بعض اقتراحات (٢) أنه يمكننا فهم معنى الحكاية على أنها طريقة تناول الإنسان وصياغته لذاته أو لوجوده فى شكل رواية متماسكة هوناً . وتهم الحكاية المحلل النفسى بوصفها التاريخ الفردى .

وترتبط الحكاية بالطريقة التى يتحدد فيها الإنسان فى الزمان فى سياق فكرة «فى وقت لاحق» "Aprés coup" ، ويشيع الميل إلى تفضيل

(١) علم نفس كيانين مصطلح خاص ببيون المحلل النفسي البريطاني الشهير .

(2) Jean Laplanche : Narrativité et herméneutigue guelgues Poopositious Revue Française du Psychanalyse Tome xlxx. 1998.

الحكاية فى وقت لاحق : تاريخ الحياة تاريخ المرض وتاريخ العلاج على الموقف العلاجى الذى يتسم بالضرورة أنه «استعارى» . إلا أن الحكاية فى رأيه لاتخلو من رواية «مشروع الحياة» "Projet de vie" ، ويتناول التحليل النفسى الحكاية بوصفها إعادة الذكريات أو إعادة البناء الصادق ، لاعلى كونها عن بناء متماسك لرواية ما مثلما يفعل كل من «سبنس» و «فيدرمان» و «شيفر» ، الذين يهمهم إخراج الحكاية كمحرك للعلاج ، وهو عمل يساهم فيه المحلل والمريض ؛ فالحكاية خلق يساهم فيه إثنان لانجد له إطاراً مرجعياً فى الواقع .

وفى هذا يقول «فيدرمان» : «ليس من المهم أن مارآه ليوناردو وهو حلم أو ذكرى ، وليس من المهم أن ماقاله ليوناردو هو حدأة أم نسر وإنما مايهم أن المحلل – دون اهتمام بالواقع – يجمع مادته ليقيم بناءً متماسكاً لايعيد إنتاج تخييل موجود من قبل فى لاشعور الفرد ، وإنما الحقيقة تشيد فى لحظة النطق بها . (المرجع السابق ، ١٩٧٠) .

أما «سبنس» و «شيفر» فيحيلوننا إلى خلق مزعوم ووجود أبنية بدائية موجودة من قبل ، يستعيدها الفرد تحت زعم «الحقيقة» . ويحيلنا «فيدرمان» إلى التخييلات الأولية (البدائية) ، أما «شيفر» فيحيلنا إلى الأبنية الروائية أو السيناريو المنظم لعقدة أوديب . ويجدها إستراتيجيات روائية رائعة ، تكفينا فى حد ذاتها ، ولسنا فى حاجة إلى مراجع واقعية تاريخية .

ويمكننا التساؤل إذا ماكانت هذه المفاهيم لاتقوم بشىء سوى تحريكها لفكرة «يونج» "Jung" ، التى عارض بها «فرويد» ، ألا وهى فكرة «التخييلات الاستعارية» "Fantasmes Retroactif" .

التحليل النفسى – بناء على ماسبق – أنموذجاً شبيهاً بأنموذج سابق (أولى) .

وفى هذه الصدد .. فإنه على الرغم من صياغات «هيدجر» يبقى عديد من الأسئلة مطروحة على الساحة ؟ من بينها الأسئلة التالية :

* ما الذى يفسر ؟

* وما هدف إخراج الرواية ؟

* ما أدوات إخراج الرواية ؟

* ما نتائج إخراج الرواية أو على نحو أكثر دقة . ما النتائج فى إطار الميتاسيكوجيا ؟

* ما وظيفة التحليل النفسى التطبيقى باستخدامه للرواية ؟

إن هدف الفهم المسبق لايمكن أن يكون – بأى حال من الأحوال – موقفًا فجًا (بدائيًا) ؛ إذ لايمكن إخفاء معنى سوى على مايأتى بالمعنى معه. إلا أنه ، هنا ، فإن الاعتراض الذى يواجه به كل من «سبنس» و «فيدرمان» (عدم مقابلة رواية مفعمة بالمعنى مع معطى فج) ، يعرضنا لمخاطرة دفعنا إلى (المالانهاية) .

ويرى «لابلانش» أنماينقذنا من الانزلاق فى المالانهاية هو تدخل الآخر ، ومن المناسب أن نؤكد أن الفهم المسبق لايستند إلى معطى ، وإنما يستند إلى «رسالة». فالتأويل أولاً – وقبل كل شىء – تأويل لرسالة ، ويفضل «لابلانش» استخدام كلمة «ترجمة» "traduction" لوصف عملية تحويل الرسالة لمستوى الفهم ؛ إذ يرى أن هذا المصطلح يتناسب على نحو

أفضل من التفسير أو التأويل – وهى ترجمة ليست بالضرورة بين – لغوية، وإنما بين – سيميوطيفية (جاكوبسون) ، وتنتمى على المستوى المادى الملموس بالمواقف الأولى من الطفولة ، أعنى الرسائل التى يبعثها الكبار للطفل .

أما أدوت الفهم المسبق أو الترجمات الأولية ، فهى الأبنية الروائية فهى الأبنية الروائية والعلامات والأساطير ، التى يكتسبها الطفل من المجتمع المحيط . ويناقش «لابلانش» فكرة أن الترجمة تحدث على المستوى اللغوى ، ويرى أن اللغات من حيث إنها عادة (بما هى لغة وطنية واحدة) أو الاختلافات فى البنية اللغوية ، فهى قاصرة على فهم خصوصية العلامات الخاصة بالرواية والمقترحة على الطفل..

ويتناول علماء الإثنولوجيا العلامات أو الإشارات بالطريقة نفسها التى يتناولها المحللون النفسيون ، ويدرجونها تحت عناوين ، مثل: «المركبات الكبرى» و «التخيلات الأولية» و «النظريات الجنسية للأطفال» و«القصة العائلية» . وتغيب أى قيمة «للمعرفة» Connaissance فى هذه العلامات ورغم ذلك فإنه لايمكننا أنكار قدرتها العالية على الربط والإخراج .

ويبدو من المناسب ميتاسيكلوجيّاً أن يفسر الرسائل الأولى التى يرسلها البالغون للصغار على أنها تنطوى على الجنس ، ومن ثم تتحول إلى رسائل غامضة مستغلقة على الفهم ، ومن ثم تحقق أى ترجمة لها .. وبكلمات أخرى فإنها تكبت .

ويشيد الجهاز النفسى ، الأنا والهو ، فى إطار من التحولات الخاصة بالترجمة الأولية [1] ، ومن ثم يمكننا أن نحدد مكاناً لإخراج الرواية فى إطار العلاج دون محاولة لتناول وظيفتها الدفاعية ؛ إذ إن «فرويد» قد بين لنا هذه الوظيفة بصدد مناقشته للحلم ، بتحديده لمفهوم «الصياغة الثانوية» وهو دفاع «سوى» وعلى أية حال «محتوم» . وبالمثل .. فإن الإخراج فى شكل رواية ينبغى أن يتماشى مع الجانب العلاجى النفسى وهو مالايقلل من قيمة الميتاسيكلوجيا التى ترى فى الكبت الضمان والختم .

ونفصل القول السابق حينما نرجع إلى مقال «لابلانش» المعنون «التحليل النفسى» : «الأساطير والنظرية» ، وفيه يناقش التحليل النفسى بين الأسطورة والنظرية مضيفاً إليهما الرواية : أساس مناقشتنا . . .

ويتساءل لابلانش عن كيفية تحول التحليل النفسى بجله إلى فكر أسطورى- رمزى فى نظر أعداء التحليل النفسى ، وهؤلاء اللذين يرسمون له صورة خاطئة ، تتميز بالقصور فى الفهم ونقص فى المعلومات .

هذا .. وقد إبتدع «فرويد» «الرواية العائلية للعصابى» كما ابتدع «لاكان» «الأسطورة الفردية للعصابى» ، وهكذا .. فإن الرواية تفرض نفسها على الدوام فى تراث التحليل النفسى . وأصبح فهم الرواية بالمعنى الخاص «بسبنس» «فيدرمان» «الشعار» فى جوهر التحليل النفسى وفى جوهر «التأويل» .

(1) Laplanche : Nouveaux Fondements pour la psychanalyse. Paris. P.UF. 1987.

ويبدأ «لابلانش» مناقشته بموافقة «أنزيو» "Anzieu" ، الذى أعتبر أهم مكتشفات «فرويد» قاطبة هما : معنى الأحلام ومركب أوديب.. إلا أنه يضيف رأيه القائل بأن هذين المكتشفين لايمكن اعتبارهما نوعين من المحتوى ، وإنما يمكن اعتبارهما منهجين : التداعى مقابل الرمزى أو الفردى مقابل الثقافى .

ويبدو أن «فرويد» قد نهل من المجال الأسطورى – الرمزى ، ومنها صاغ المركبات الأساسية (الأوديب والخصاء) ومجموعة السيناريوهات، التى يطلق عليها غطية التى نجدها فى الحلم الرمزية ، وأخيراً وليس آخراً العلاقة بالأسطورة .

ومن الصعب أن نحدد مكتشفات «فرويد» ، التى سبقت الغزو الأسطورى – الرمزى ، ولكن ينبغى الإشارة إلى أنها قد تزامنت مع اختراعه الحقيقى : الموقف التحليلى ومنهج التداعى ، التى فتحت له الباب على مصراعيه إلى اللاشعور .

ويسوق لنا «لابلانش» مثلاً لحلم عرضه «فرويد» فى كتاب «تفسير الأحلام» ، فى الطبعة الأولى التى سبقت عام ١٩٠٠ : وهو حلم متكرر (لمدة أحد عشرة عاماً) يتعقبه رجلاً حاملاً بلطة ، ويرغب فى الهرب إلا أنه يظل مشلولاً .

ثم يعرض «فرويد» صفحتين كاملتين من المستدعيات الخاصة بالحالم ، جد متشعبة ، قادته إلى أفكار مثل العنف والعدوان والتنافس الأخوى . وقد ظهرت ذكرى منعزلة ، هى ذكرى مشاهدة جماع الوالدين.. إعتبرها «فرويد» مصدر الحصر والاستثارة الجنسية التى لم

يسيطر عليها الحالم .

ويعلق «لابلانش» على الحلم وتفسير «فرويد» بأن الأخير قد تغاضى عن المعنى الواضح للحلم ؛ فلم ير (الخصاء) فى الحلم ؛ الأمر الذى يتماشى تماماً مع كون الحلم ، «حلم حصر» . إلا أن التغاضى أو التناقض فى فهم «فرويد» ، تكرر فى كل الطبعات التالية من تفسير الأحلام من حيث إنه لم يعتبره حلماً نمطياً يتضمن الخصاء ، ولم يفسره فى ضوء الرمزية . ويرى «لابلانش» أن ماهو نمطى وماهو رمزى يرتبطان ارتباطاً كبيراً (وهو ماسنرجع إليه فيما بعد) .

وعلى الرغم من ذلك ، يصر على أن الرمزية فى الأحلام لاغنى عنها فى فهم الأحلام ، التى نطلق عليها أحلاماً نمطية للناس والمتكررة لدى الفرد . ويعارض «لابلانش» فكرة أن الرمزى والنمطى متشابهان : فالرمزى يبرهن على حقيقة العلاقة الوثيقة بين الدال والمدلول، بينما ينتمى النمطى إلى سيناريو محدد . ونعلم جيداً أنه من الخطأ أن نرى توازياً دائماً بين الدال والمدلول ، وأنه ينبغى أن نفهم الرمزى داخل السياق الكلى؛ فالتوازى الذى وجد فيه فرويد منبع الرمزية وتفسيره للبلطة على أنها آلة على قطع يعنى إمكانية تفسيرها فى داخل سياق السيناريو على أنها الخصاء فى الوقت نفسه .

ورغم ذلك .. فإن ماهو نمطى قد دفع بفرويد إلى اكتشاف المركبات : مركب أوديب الذى طوره تماماً فى كتاب «تفسير الأحلام» ؛ ففى الفصل المعنون «موت الأحباب» كان المرجع الأساسى هو تراجيديا أوديب لسوفوكليس ، وبوصفه المحرك الذى يجمع الكل فى وحدة

متماسكة؛ الأمر الذى لايعنى تأكيد المركب فى الأسطورة فحسب ، وإنما أصبحت قراءة الأساطير من الآن فصاعداً على أنها أساس والمكان الخاص بالرمزية .

هذا وقد اشترك «فرويد» مع «أوبنهايم» "Oppenheim" الذى أطلعه على وثائق أثنوجرافية على الأحلام فى الفولكلور – نشرا كتاباً مشتركاً بعنوان : «الأحلام فى الفولكلور» قام «فرويد» بالتعليق التالى عليها : «تلح علىّ منذ فترة فكرة أن دراساتنا حول محتوى العصاب يمكن أن تكون لها وظيفة إلقاء الضوء على لغز تكوين الأساطير ، وأن نواة الأسطورة ليست إلا «المركب النووى للعصاب» ... هذا الذى أمكننى أخيراً أن أظهره صراحة فى تحليل حالة فوبيا ، لطفل يبلغ من العمر خمس سنوات» .

هذا وقد فسر «فرويد» الأحلام فى الكتاب السابق تفسيراً اعتمد فيه تماماً على الرمز؛ إذ تغيب المستدعيات حيث لايوجد حالم . ويرى «لابلانش» أن ما أطلق عليه «فرويد» النظريات الجنسية للأطفال ، والتى أشار إليها «فرويد» فى خطاب لأوبنهايم ، والتى استمدها من حالة «هانز» ، تعتمد إلى حد كبير على الميثولوجيا (الأساطير) والحكايات الخرافية .

إلا أن نظرية الخصاء التى عبر عنها «هانز» ، وأخرجها سيجموند فى نظرية سيكون قدرها قدراً أسطورياً ؛ فهى تشير إلى أسطورة أصل الفروق بين الجنسين ؛ والتى تعتبر أن الجنسين كانا فى الأصل جنساً واحداً هو الجنس الذكرى ، وهى أسطورة يمكن أن نجدها فى داخل السياق الإثنوجرافى؛ فهذه النظرية لسيمجوند وهانز سوف تتحول إلى أسطورة فى تراث التحليل النفسى ، فنحن نعلم أن أصل الفروق بين الجنسين يتحول

تصويرها فى فكرة الخصاء ، الذى يعمل فى تفاعل بين الأم وطفلها ، ويتحول «الخصاء» عموماً بكلمات ميتافيزيقية وبكلمات بسيطة إلى «المالانهاية» ، "Finitude" .

هذا وقد حول كل من «فرويد» و «لاكان» مركب الخصاء إلى مفهوم شمولى– وربما يكون أكثر شمولية من مركب أوديب – رغم أن عمل الإثنولوجيين لايفتأ أن يبرهن على أن أساطير وطقوس الطهارة والختان والبتر لايمكن تحميلها هذا المعنى العميق أو المنطق «الغالى» ، الذى تتخذه فى التحليل النفسى الحديث ومابعد الحداثة .

كيف يمكننا والحالة هذه أن نحدد مكاناً لهذا المجال الشاسع ، الذى لم يقلل «فرويد» من أهميته أبداً ؟

فلنحيل القارئ إلى الفصل العاشر من المحاضرات التمهيدية فى التحليل النفسى ؛ إذ نجد أن فرويد قد أكد أن الرمزية تنتمى إلى مجال خارج التحليل النفسى ، وأنه من الناحية التاريخية يعتبر نوعاً من الرجوع إلى المنطق البدائى «مفاتيح الحلم» ، أو «كتب الأحلام» التى نقدت بشخصية الحالم لابتاريخه الفردى .

وفى سياق أكثر حداثة ، أشار «فرويد» إلى الفيلسوف «شرنر» "scherner" ، الذى يشير إليه على أنه المكتشف الأساسى للرمزية فى الأحلام .

وتعد الرمزية مجالاً خارجياً على التحلى من منظور آخر أعنى خارجياً بالقياس إلى المكان الأساسى للنشاط التحليلى : تفسير الأحلام أو

الأعراض ، أما مصدرها كما يؤكد «فرويد» على الدوام – فهو قراءة النتاجات الجمعية الثقافية .

أما النقطة الثانية .. فهى لاتقل أهمية عن سابقتها ، فهى أن الرمزية تسمح بقراءة متماسكة (للحلم) ، أو قراءة الحلم ككتاب مفتوح . أما فكرة أن التحليل النفسى يمكنه القراءة ككتاب مفتوح (هذا يساوى ذاك) فكرة رفضها «أندريه جرين» "Green"فى تقديمه لكتاب الأثنولوجى المعروف «جويرا Juillerat» المعنون «أوديب الصائد» ؛ إذ يقول : «إن تفسير الأسطورة» لايمكن أن ينزلق فى مخاطرة فك الشفرة ، على النحو الخاص بالترجمة الفورية : هذا يعنى ذاك» .

إلا أن «فرويد» قد انزلق فى هذا الشَرَكْ ، حينما قام بتفسير الأحلام الفولكلورية على أساس أن الرمزية ؛ الأمر الذى قادنا إلى اكتشاف أن الرمزى قد يتواجد فى شكل محرف دون حاجة إلى الرقيب Censor . الأمر الذى نواجهه أيضاً فى الأساطير وفى الأشكال الرمزية فى الأحلام . وهذه الفكرة على وجه التحديد أعنى التحريف ، الذى يرتبط بعملية الترميز والتعبير فى سياق آخر ؛ الأمر الذى دفع «بفرويد» إلى صياغة فرضاً بوجود لغة شمولية» .

وتكمن المشكلة الأساسية فى هذا الصدد فيما ، إذا كنا سنعتبر هذا الكشف الجديد بوصفه محتوى أم منهجًا . وبما هو محتوى .. فيقودنا البحث التحليلى النفسى دائماً إلى «الميول اللاشعورية» ، أو إلى الدفعات الغريزية وتمثلاتها اللاشعورية ، ولنضف مع «فرويد» «أنه يعنى أكثر من ذلك» ، يعنى تعرف المعارف اللاشعورية والعلاقات الخاصة بالتفكير

والمقارنات بين مختلف الموضوعات : ويذهب الأمر «بفرويد» إلى التساؤل، عما إذا كان اللاشعور يعنى المعرفة بالرمزى .

ويطفو على السطح بصدد موقف وطبيعة هذا النوع من اللاشعور الذى يسم المعرفة الرمزية – الأسطورية .. إلا أن «فرويد» لايدفع بالتساؤل إلى أكثر من هذه النقطة ، ورغم ذلك فإنه لايتوقف عن الظهور فى المناقشة الدائمة ، فيما بين المحللين وعلماء الأسطورة .

ويطرح عالم الأنثولوجيا «جويرا» تساؤلاً حول طبيعة اللاشعور ، ويلجأ إلى تفسير قاصر فى المعرفة ؛ إذ يقول : «إننا لانبحث عن التفرقة بين اللاشعور والقبشعور ، ونفضل إعلان إخفاقنا فى تحديد وظيفة دقيقة فى تكوين الأسطورة ؛ الأمر ذاته الذى يمكن أن نطبقه على طبيعة اللاشعور فى الأسطورة .

ونجد «لابلانش» يعترض اعتراضاً منويولوجياً ؛ إذ يرى أن «التداعى الطليق» لايسعى للكشف المباشر عن المحتوى اللاشعورى ، وإنما يقودنا فى دروب جد متشعبة تتقاطع أحياناً وتتباعد فى أحيان أخرى، وتجرنا فى دوائر وتهدف إستنتاج عناصر لاشعورية ، تقودنا فى أحسن الأحوال إلى إعادة تنظيمها فى خطاب لاشعورى ؛ حتى يكتشف لنا المعنى على نحو مقبول هوناً (المرجع السابق) .

ويصر على أن المنهج الأساسى فى التحليل لايسعى إلى الوصول إلى معنى ثانٍ متماد (أى صفة معنى مجرد يمتد شموله إلى معنى مجرد آخر يكامله أو إلى جزء فيه) إلى المعنى الشعورى ، وإنما يسعى إلى تنظيم العناصر الدالة ، التى كانت قد استبعدت فى البداية ؛ أى «كبتت» فى

خطاب ثان . وبعبارة أخرى .. فإن الهو لايمكن اعتباره «أنا» ثانية أكثر صدقاً.

ومن ثم .. فإن استخدام المنهج الرمزى إنما يتعارض دوماً مع فهم التداعى الطليق ، من حيث أن هذا الأخير يهدف قراءة ماهو خفى وربما لايكون على الدوام بمثابة ترجمة فورية أو قراءة لكتاب مفتوح ، ولكنه يمكن أن يعتبر نوعاً من الإيضاح يهدف الوصول ، ورأب صدع ماهو كامن ، والذى يحمل قدراً أكبر من الحقيقة بصورة أساسية أكبر .

كيف إذن نفصل بين منهجين مختلفين إلى هذا الحد .

وإذا كان «فرويد» قد رأى أنهما مكملين بعضهما البعض .. إلا أنه لاينبغى فهم الأمر على أنه نوع من المؤازرة أو المساندة المتبادلة . ويحيلنا «لابلانش» إلى فقرة من الفصل العاشر من كتاب «محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى» ؛ حيث يقول «فرويد» :

لقد أكدت سابقاً أنه لدى المحللين فإن هذا العنصر أو ذاك فى الحلم لايستثير أحياناً أى فكرة عارضة ... وتوجد حالات يخفق فيها التداعى .. وإذا اقتنعنا أن كل الضغوط فى مثل هذا الحالات تخفق .. فإننا نكتشف فى النهاية أن هذا الحدث غير المرغوب يسود عادة بالنسبة للعناصر المحتومة فى الحلم ...» ونصل (هكذا) إلى محاولة تفسير هذه العناصر «الصامتة» بترجمة مناسبة ، وأن إثباتها يتطلب معنى مناسباً فى كل مرة ، نقوم باستبداله .. بينما يبقى الحلم خالياً من المعنى ومن التماسك ومحطماً فى حالة ما إذا لم نلجأ إلى مثل هذا التخدل Eingrift .

ويشير المصطلح الألمانى الذى استخدمه «فرويد» "Eingrift" إلى معنى التدخل أو التطاول أو الاعتراض . وكلمة ترجمة أو استبدال هى كلمات تنتمى إلى المنهج الرمزى بطبيعة الحال ،ولكن مايهمنا فى هذا الصدد هو أنه حينما **يتحدث الرمزى يصمت التداعى .**

أما العكس .. فلم يطبقه «فرويد» فى تفسيره لحلم «الرجل ذو البلطة»، الذى سبق أن أشرنا إليه آنفاً : فقد تحدثت المستدعيات ويبقى الرمزى صامتاً . وهكذا يخلص «لابلانش» إلى أن المنهجين – بصرف النظر عن علاقة التكامل الظاهرة بينهما – فإن هناك علاقة استبعاد متبادل بينهما . فحينما يتحدث إحدهما يصمت الآخر . ويطرح التساؤل التالى نفسه : أليس الرمزى مايسكت التداعى ؟ وإذا كان «فرويد» قد قرأ الخصاء لدى «الرجل ذو البلطة» ألايكون قد شك فى أن المستدعيات قد سكتت ؟

وابتداء من هذا الاكتشاف الجديد الذى ظل دون اكتشاف حتى هذا اليوم ، يبقى أن نعرف كيف تنتظم الأشياء من الآن فصاعداً . ويبدو أن هناك استحالة للتقارب بين المنهجين ، ورغم ذلك تجد استخداماً واسع النطاق للمنهج الرمزى ، وبالمثل الفكر الذى يمكن أن نطلق عليه اسم «الأسطورى – الرمزى» فى مجال التحليل النفسى ، خارج نطاق العلاج . وينتمى إلى مجال التحليل خارج نطاق العلاج ، كل من الظاهرات الجمعية والفردية على حد سواء . وفى مثل هذه الحالات ، فمن النادر أن تفسر حالة على سبيل المثال «ليوناردو ادافنشى» ، على أساس من مستدعيات مشابهة للمستدعيات ، التى تسود جلسة العلاج التحليلى النفسى .

وقد لجأ «فرويد» فى مثل هذه الحالات - بطبيعة الحال - إلى الأنموذج الأسطورى - الرمزى - من حيث إنه لم يكن تحت يده أى مستدعيات ، هذا .. ونجد "Edmond Ortigues" يشيرا إلى سفى لوين "Svilothen" يعلق على حالة شريبر بقوله : «إن التحليل النفسى التطبيقى "appliquée" (..) يمكنه أن يؤدى إلى الإنحلال كما بين«فرويد» - ويحول التحليل النفسى إلى تحليل نفسى فج ويولد أساطير تأويلية وأن قراءة تفسيرية لحالة شريبر قد ولدت أساطير تحولت إلى خرافة» (١) .

ويعتبر النقد السابق نقداً باطلاً ، فى حالة ما إذا أظهر المحلل قدرةعلى الاستدلال ، فيما بين سطور الرمزية ماهو شديد الوضوح وشديد السيطرة ، وما لم يمكن للرمزية إسكاته...

فإذا أسكتنا المستدعيات ، يفرض الرمزى نفسه فى الاعتراض "Eingrift" ، ويعبر عن نفسه هكذا : «لتصمت المستدعيات أنا الخصاء أتكلم» .

ويشير «لابلانش» إلى أن «فرويد» قد قدم لنا حلاً للمشكلة ، التى نناقشها فى أنه قد شيد ترتيباً تصاعدياً ، يقبع الفكر الأسطورى الرمزى فى القاع ، ويحدد له مكاناً جد قديم يسبق بكثير المكبوت الفردى .

ويقبع اللاشعور الأولى غير المكبوت المشيد فى قاع كل فرد ، ويدخل هذا فى سياق مفهوم «التخييلات الأولية» "Fantasmes" ،

(1) Zvilothane. : in defense of schreber : soul Murder psychiatry' Hillsdale New Jersey The Analytical, Press, 1992. Cited in Edmond. Ortigues. "Shreber revisité" in Psychauoanalystes 1993-1994 n=48.

الذى كان موضوع دراستى فى مرحلة باكرة من حياتى"Originaire" العلمية ، كمثال يمكن نقده ، ومن ثم يمكن تعديل موقف البحثة منه ؛ إذ يتضمن فى جوهرة العودة للدفعات الغرزية بوصفها سلوكاً سابق التكوين (مثل السكيما الغرزية الأوديبية) ، وهو مايتضمن خفض"Préformé" قيمة عملية الكبت كمصدر أساسى للاشعور ، كما يتضمن فكرة «الإرث السلالى» بالمعنى المحدد الذى يشير إلى العودة إلى السلف .

وقد نقد «لابلانش» هذا الفهم نقداً شديداً فى كتاب بعنوان «الثورة الكوبرنيقية غير المنجزة» (١) .

ويحق لنا أن نعدل موقفنا السابق ، باعتباره طوراً من أطوار الفصح العلمى ، ونسعى إلى صياغة جديدة لفهمنا السابق ؛ إذ نرى أن نحتفظ بمسافة بين التحليل النفسى والأساطير والنظريات ، التى تصف الفرد برغم جاذبية أبنيتها التفسيرية - ومن بينها تلك التى تطابق فيما بين حقائقها وحقائق التحليل النفسى ؛ خاصة مركب الأوديب .

(وفى هذا الصدد نجد «ليفى شتراوس» يعترف بأنه قد صاغ «أسطورة ابتداء من الأساطير» (٢)) .

ولعل أهم الأمور التى ينبغى على التحليل النفسى القيام بها ، هى التفرقة فيما بين الفكر الأسطورى - الرمزى بتطوير أنموذج قابل لتحديد موضع هذا الفكر ، وتحديد أهميته ووظيفته .

(1) Jean, Laplanche : La Revolution Copernicieune inachevée Paris. Aubíer. 1992. p. xxx11-xxx 111.
(2) Lévi - Strauss : Liomnie Nu. Pares Plar. 1971 P. 504.

ويرى «لابلانش» أن النماذج الفكرية فى التحليل النفسى بمثابة أبنية ميتاسيكولوجية ، شيدت بعيداً عن الخبرة العملية .

كما يرى أن «فرويد» قد استخدم مفاهيم استعارها من علوم أخرى، ووضعها فى سياق جديد ، ونعلم جيداً اصطباغ الكثير من المفاهيم التحليلية النفسية بالفيزياء ... هذه الاستعارة التى لاتعد أمراً غريباً أو مخالفاً فى التراث العلمى . ورغم ذلك فإنها تحيلنا على الدوام إلى الرجوع إلى المصادر الأصلية .. الأمر الذى ينطبق على سبيل المثال على الطاقة الليبيدية ، التى حدد لها «فرويد» مكاناً هو «الهو» ، وبذلك يحيلنا إلى النيوروفسيولوجيا .

وفى رأى «لابلانش» .. فإن تفسير مصدر الجهاز التنفسى ، إنما يكمن فى عملية الكبت ، وهو أنموذج يعزل ابتداء منه «الأنموذج» الذى سيفسر به ، ويقوم افتراضه الأساسى فى «الترجمة» .

ويرى أنه على الوليد ترجمة «الرسائل» التى يبعثها البالغون، وفى هذا السياق يمكن مناقشة الفروق بين الواقع المادى والواقع النفسى ؛ إذ لاينبغى فى رأى «لابلانش» أن ندرك الواقع النفسى سوى فى مجال «الرسائل» .

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى الأسطورة .. فإن الأسطورة كما يذهب شيخ الأنثروبولوجيين «كلود ، ليفى - شتراوس» إنما تعطى لنا كود "Code" ، أو عدداً كبيراً منها ، بعضها يختلف فيما بينها ، والبعض الآخر يتحول ليتخذ شكلاً آخر . ويتسم جوهر أعمال «ليفى - شتراوس» بالاهتمام بالبناء المجرد للأسطورة على «لحمتها» (Chair) .

ويقرر «ليفى – شتراوس» أ«ن فرض النظام – يقول لنا ، هو أساس كل تفكيــر» (١) ، ويعلق «لابلانش» أنه كان ينبغى عليه أن يتساءل عن معنى التنظيم ؟ وإذا كان الفكر الأسطورى له وظيفة وضع الشفرة ؟ وعلى أى شيء تفرض ؟ هذا وقد تطور «ليفى – شتراوس» فى تفكيره ، وتبدل منذ اختزاله للطوطمية على أنها تصنيف للبشر فى مجموعات .

وهنا نرجع إلى تعديل فى رأيه إذ يقول : «إن حلاً ليس مسكناً للضيق الفكرى وحالة الاضطراب الخاصة بالحصر الوجودى ، من حيث إنها غير سوية ومتناقضة وفاضحة ، وكلها تقدم بوصفها تعبيراً عن بناء تنظيمى أكثر وضوحاً فى مجالات أخرى من الواقع» (٢) .

وبكلمات أخرى .. فإن الأسطورة إنما تقترح «سيكما» ، تترجم إلى فهم جديد فى مواجهة الحصر الوجودى "Existentielle" ، الذى تستثيره العناصر الغامضة والمقلقة ، التى تبدو بالنسبة للفرد ، على أنها «غير سوية ومتناقضة» .

ويرى «لابلانش» أن هناك قصوراً فى الفهم لدى المثولوجيين ؛ إذ لايتساءلون عن الطريقة التى «قدم بها الأسطورة للكائن الإنسانى» ويرى أنها تقدم إلى الإنسان فى أيامه الأولى بوصفها كوداً "Code" (٣) .

(22) Lévi-Strauss : La Penseé Sauvage. Paris. Plou. 1962.

(23) Lévi-strauss : La Potiére Jolouse. Paris. Plou.. 1985.

(٢٤) في هذا الصدد نرجع إلي Merleau-Pomty علي أعمال مارجريت ميد Mead تعليق «مرلوبونتي» إذ يقول «بالنسبة لمارجريت ميد فإن الموقت الأوديبي الذي وصفه «فرويد» ليس إلا حلاً فردياً لمشكلة عالمية . وماهو عالمي (شامل) مشكلة تواجه بها كل المجتمعات بسبب وجود الأبناء مع الوالدين . فالحقيقة العالمية هي أن الطفل يكون صغيراً وضعيفاً في بداية حياته ولايتفاعل إلا في حدود عالم البالغين» .

كما يرى أن السيناريو الذى تقدمه لنا الأسطورة ، هو مايسمح لطفل بالوصول إلى العالم الإنسانى ، بواسطة «ترجمة الرسائل» الغامضة ، التى تأتيه من البالغين .

ويصيغ «لابلانش» فرضاً يحاول به فض مجهلة التساؤلات المثارة حول علاقة الأساطير بالتحليل النفسى ، مؤداه أن الإنسان هو المفسر الأول .. أما المفسر البدائى فهو الطفل الصغير . إلا أن المحاولات التفسيرية لايمكن أن تبدأ من الفراغ ، وإنما لابد أن يكون لها منبعها فى الثقافة ، وتنقل إلى الطفل بواسطة البالغين .

أما الكبت فيعد فى رأى «لابلانش» إخفاقات، تدفع إلى الترجمة فى مواجهة كل مايحمل تناقضاً وغموضاً له صبغة جنسية مما تحتويه رسائل الكبار إلى الصغار . وبالتالى فمن الخطأ اعتبار الأسطورة على أنها تكوين لاشعورى على النحو نفسه الذى نرى به الأحلام ، وبذلك نحاول أن نستمدها من اللاشعور الفردى . هذا بالإضافة إلى أن الأسطورة لاتحمل ختم الرقيب – كما بين «فرويد» – الأمر الذى يقودنا إلى مسألة «اللاشعور» .

وفى هذا الصدد طور كل من «لابلانش» و «لوكلير» "Serge Leclaire" رأياً مؤداه أن اللاشعور ليس معنى خفى، يمكن حل شفرته باستخدام مناهج محددة ؛ إذ يختفى من وراء «نص» شعورى أو قبشعورى، فاللاشعور بمعنى «المكتوب» يتضمن دوالاً (ليست منطوقة بالضرورة) ، أُستبعدت أو عزِلت أو فُضت دلالتها بواسطة الكبت ، ومن ثم يصبح قابلاً «للترجمة» . هذا .. ويرى «بوليتزر» "Politzer" أن للاشعور وجوداً مضمراً

وهو المعنى الذى ازدهر ازدهاراً كبيراً فى أوساط التحليل .

ويمكن تسمية هذا الفهم تأويليّاً بالمعنى الواسع للكلمة – وهو الوحيد الذى يرى «ليفى– شتراوس» أنه جدير بالاعتبار .

المحتويات